كان هنالك قميص ابيض كبير منشور على الحبل بين ثياب الطفل (ربما كان قميص والده) ، ولا أدري لماذا بدا لي مثل علم أبيض كبير مرفوع وسط فجر الدخان ... انشق باب الشرفة ببطء . امتد رأس مذعور ثم اختفى . امتدت يد من الداخل تتحسس الغسيل لترى ما اذا كان قد جف ام لا . تسللت امرأة لتجمعه بسرعة . تبدو خائفة . يدها ترتجف وتسقط منها ملاقط الغسيل وبطنها الكبير يتقدمها . المرأة الحامل تتابع جمع ثياب الطفل المنشورة وتبدو كما لو كانت تسرقها ! فجأة تنطلق رصاصة . تُراها استقرت في بطنها في قلب الجنين ام في قلبها هي ؟ سقطت المرأة على أرض الشرفة ولم أعد أراها . انه القناص يقول لأهل الحي « صباح الخير » على طريقته ، لم يخرج أحد إلى الشرفة . لا ريب وأن زوجها لا يجرؤ حتى على جرها إلى الداخل . سمعت صوت طفل يبكي بحرقة .. لعله طفلها الذي لن تغسل له ثيابه ثانية !

كان العم فؤاد واهل البيت ما زالوا راقدين ... تسللت إلى بيتي محنية الهامة ، مرتجفة ، كما لو كنت لصاً في طريقه إلى السرقة ، لا مواطناً عائداً إلى بيته ، وكنت مثقلة بالحزن حتى الغثيان .

* * *

كابوس ٦٦

لماذا يختار الرصاص الطائش رف مكتبتي باستمرار ؟ ما سر تلك العداوة الغامضة بين الكتاب والرصاصة ؟ تفقدت غرف البيت كلها ، ووجدت ان الليلة الماضية مرت بسلام على جدراني ما عدا أربع رصاصات استقرت في رف « الكتب الثورية » بمكتبتي . والمضحك انني أجلس بأمان فيه ما دامت الشمس مشرقة ، وأهرب منه إلى بيت العم فؤاد متى حل الظلام ، كأن الرصاص لا يمكن ان يصيب مني مقتلاً إلا في الليل ! .. (تأثير آخر فاسد لافلام المغامرات السيئة على أدمغتنا ، حيث لا يقتل الممثلون إلا ليلاً ، ولا تتم الجرائم إلا في الظلمة !) ...

كان علي ان اتصل بأحد المحامين لاخراج أخي من السجن . الوقت ما يزال مبكراً ..

هذا يومي الرابع وانا مقطوعة تماماً عن العالم الخارجي . لا صحف . لا باعة . لا مخلوق يعبر شارعنا . لا صوت سوى صرخات المسلحين الغامضة . شعرت بالحنين حتى إلى صوت الحفارة التي كانت فيما مضى تنغص عليّ حياتي . الحفارة رغم صوتها المروع

Akhawia.net

تعني على الأقل العمل . تعني الحياة الطبيعية . افتقد حتى صوت جارنا جاك الذي كان يضحك كما لو كان يتشاجر ، ويتشاجر كما لو ان مذبحة قد وقعت ... وافتقد موسيقى بناته والستريو ذا الأبواق الثمانية ، الذي كان لا يهدأ ليل نهار ... افتقد كل الأشياء التي كنت أكرهها ... اي شيء خير من هذا السكون المروع والعزلة القاتلة . تمنيت لو يأتي أي مخلوق .. لو يفتح الباب في هذه اللحظة وتدخل عصابة للسرقة ، لرحبت بافرادها ولرجوتهم ان يجلسوا معي قليلاً لنتحدث معاً ولآنس بهم قبل ذهابهم ... بدأت اتخيل ان الأمر يحدث حقاً . يفتح الباب . يدخل ثلاثة من السارقين شاهرين مسدساتهم . بل رشاشاتهم . لنقل مسدساً ورشاشين . سيدخلون مقنعين ويصرخون بي : ارفعي يديك إلى الأعلى ...

سأمد يدي اليهم مرحبة مصافحة وسأقول لهم : أهلاً وسهلاً بكم . لقد تأخرتم طويلاً وانا انتظركم منذ أيام . الوقت ما زال مبكراً ولا ريب في أنكم لم تشربوا قهوة الصباح بعد ! .. سأعد لهم القهوة واسألهم كيف يحبونها (سكر وسط — زيادة) . سيقول أحدهم انه يفضل السكر كثيراً والثاني متوسطاً والثالث قليلاً من السكر في قهوته .. سأضحك وسأقول لهم : انكم لا تستطيعون الاتفاق حتى على قهوتكم الصباحية ، فكيف تتفقون على اي أمر آخر ؟ ...

وحين آتيهم بالقهوة ، سيضطرون إلى رفع أقنعتهم كي يشربوها ... سأرى وجوههم ، متعبة ، ومصفرة ، ويشكون من فقر الدم . وسنتحدث قليلاً عن الطقس والأسعار والغلاء ورائحة القمامة المحترقة التي تفوح من شوارع بيروت كلها ، وخطر انتشار الاوبئة ، وسأنبههم إلى ضرورة تطعيم اولادهم ، ثم سأساعدهم على حزم ما يختارونه من مسروقات من بيتنا ... لن يضايقني ان يأخذوا اي شيء ما عدا الكتب ، ولكنني لم اسمع بعد عن سارق حوكم بتهمة سرقة كتاب .. فالكتاب ثقيل الوزن ، ثم انه بضاعة كاسدة لا أحد يشتريها . أجل ! لن يسرق أحد كتبي وهذا هو كل ما يهمني . وحين يمضون سأقف على الشرفة والوح لهم بمنديل ابيض مودعة ... وقد يكتبون لي عناوينهم — اذا كانت لهم عناوين — لنتزاور في المناسبات القادمة .

رنين الهاتف يوقظني من كابوسي ... ترى من يطلبني في هذا الصباح المبكر ؟ .. مزيد من الأنباء السيئة ؟ .. انها سلوى تريد ان تعرف هل وافق الاستاذ صبري على

Akhawia.net

ضمها إلى فرقته للرقص ؟ ومتى يقابلها ! ... نقول انها لم تنم الليلة الماضية قلقاً . انها خائفة من ان ترفض ! .. أختها مريم ؟ آه .. نسيت أن تخبرني أن مريم قتلت ! ..

* * *

كابوس ٦٧

اخرجت لفافة ، ووضعتها في (الاكوافيلتر) الذي يمتص النيكوتين ثم انفجرت اضحك ... لمن اوفر رئتي ؟ للرصاص ؟ انني كمحكوم بالاعدام يرفض تدخين لفافة لانها تؤذي صحته ! ... اشعر بانني مبعثرة ومشتتة ، ولكن عليّ ألا انسى الاتصال بمحام من أجل الافراج عن أخي . لم يضايقني انه في السجن ، فالسجن اليوم هو المكان الوحيد الأمين في بيروت . ولم تقع فيه حادثة قنص واحدة ، ولا حادثة خطف ! حتى مستشفيات المجانين لم تسلم من الخطف ، أما السجن فلم يتذكره أحد بعد ... (لا أدري لماذا دهش الناس لخطف بعض نزلاء مستشفى المجانين ، الم تستحل بيروت كلها إلى (عصفورية) واحدة ؟ .. فلم هذا التمييز (العنصري) بين نزلاء المصحات ونزلاء بعض المتاريس ؟ ...)

قرأت قليلاً في كوم الصحف العتيقة ، ثم قررت التوقف عن ذلك لأنها تحرض مزيداً من الكوابيس ، وتجمع أهوال الشهور الماضية في كوم أمام عيني .. وتحولها إلى شريط يتزلق داخل رأسي مليئاً بالصخب والعنف والكوابيس .

كان لا مفرّ من الاستماع إلى اذاعتنا الكريمة ، وهو عمل لم اقترفه منذ زمن بعيد ... وهكذا بدأت استمع في الساعة السادسة والنصف إلى اغنية :

(ما أحلى الصبحية — نحنا والجيران — والعيشة هنية — والقلب فرحان) .. وذهلت .. كيف تتحدث اذاعتنا الكريمة عن (العيش الهانىء) مع الجيران والبؤس جارنا الوحيد ؟ ..

ولم أكن أدري ان امامي المزيد من المفاجئات ... فقد استيقظت هذا الفجر على دوي متفجرات مدينتنا المشلولة ، لكن الأغنية التي اسمعها الآن تقول (مع طلة صباح النور دولاب العمل يدور) .. ولم يكن هنالك ما يدور غير امشاط الرصاص داخل المدافع ! ...

السابعة والنصف صدحت انغام (قصة حب) وكانت قصة الحب الوحيدة التي تدور في بيروت هي بين الجرح والخنجر ! ...

Akhawia.net

الثامنة إلا الربع كان هنالك من لا يخجل من بث اغنية تقول : بلدي ، يا رقصة الجداول ... يا ملعب عصافير .. يا درب السنابل وكروم الذهب .. ودروبها حكايات وسطوحها مرايات .. ثم يكرر المطرب مؤكدا : والمجد معمرها .. العز مزنرها .. عليانة عالريح .. وكان الامر مروعاً ...

هل الاذاعة ببغاء من ببغاوات دكان بائع الحيوانات الاليفة ؟ ما هذا الهذيان عن (المجد) والبلاد على حافة الانهيار ؟ ما هذا الهذيان عن كروم الذهب ، والفقراء والعاطلون عن العمل يفرشون كرومها بالدمع والغضب ؟ .. (يا ملعب عصافير) ؟ اية عصافير ؟ لقد احرقوا اجنحتنا فخرجنا من بيوتنا شاهرين غضبنا ومخلبنا ، وخرجت الفئران أيضاً من أوكارها جائعة تقرض عيون الجثث التي تغطي الأرصفة ...

وكانت الكارثة الحقيقية حين بدأ المذيع بتلاوة نشرة الأخبار مؤكداً ان الحالة في بيروت هادئة لم يعكرها سوى بعض (طلقات متفرقة) ! ...

وتساءلت : من يخدعون ؟ وهل تعد نشرة الأخبار خصيصاً لابهاج (أبانا) الذي فوق قمة الهرم ، ام ان الاذاعة التي ننفق عليها من أموالنا ، مرغمة على نقل الحقيقة لنا ؟..

بعد الأخبار الكاذبة — تحت ستار تهدئة الرأي العام ، كأن الرأي العام صبي قاصر — عادت الاسطوانات العتيقة نفسها والأغاني المزيفة نفسها (لبنان نسمة ارز للدنيا هناء وللعز اغنية .. ارض شوكها زهور .. لبنان دنيا حب ومواسم جنى وآيات مضوية ولبنان شو لبنان) ..

ولبنان يا سيدي المذيع (الذي لم يطلق على رأسه النار قبل ان يرضى باذاعة هراء كهذا) ، لبنان يبدو عبر هذه الاغاني المزيفة هزلياً كرموش اصطناعية على عين عوراء .. كل هذه الأغاني تبدو هزلية بينما القتال يدور في فضاء الوطن .. هزلية ومؤسفة مثل اسطوانة تانغو رومانتيكي في ستيريو ، وقد توقف الناس عن الرقص وبدأوا يتضاربون فيما بينهم بالسكاكين والفؤوس وينزفون وقد تعالى الصراخ وبلغ الدم الركب ، لكن الأسطوانة الرومانتيكية البلهاء نفسها ما تزال مستمرة في العزف لان يداً واحدة شجاعة لم تمتد لايقافها .. انك لا تستطيع تغطية أصوات الثورة الصلبة بأغنيات (الستمنتالية) السمجة الجوفاء ..

في العاشرة تماماً حين بدأ بث اغنية (... بلاد النعيم لبنان) ، نقلت ابرة المذيع من

Akhawia.net

المحطة الشرعية الكاذبة ، إلى المحطة غير الشرعية الممنوع الاستماع اليها ... اي الموجة القصيرة ... وبدأت استمع إلى حقيقة ما يدور فعلاً .. (من طارق إلى واحد بدل .. المكتبة الوطنية تحترق ..)

انها النقلة نفسها التي يقوم بها المواطن حين يتعرض لاعتداء ، فلا يصرخ « يا بوليس » وانما يشتري سلاحاً ...

كانت الهوة مروعة بين ما يدور وراء الكواليس ، وما يقدمه لنا المسرح الرسمي ... ولن يلوم أحد الجمهور اذا انقض على المسرح ليحرق الديكور ويشنق القائمين عليه ، ويعري بؤس الكواليس لشمس الحقيقة ..

* * *

كابوس ٦٨

الهاتف .. ناديا تودعني . انها راحلة واطفالها . لم أقل لها ان الوطن ليس شيكاً يمكن تجييره على بنوك أوروبا . لم أقل لها ان الوطن ليس حقيبة . لم أقل لها اي شيء .. فالخطأ لم يكن خطأ اللحظة .. بل كان ثمرة خطيئة نضجت في رحم اللامبالاة عاماً بعد عام ... حتى ولو قلت لها ذلك كله لأجابتني ببساطة : ما معنى البقاء كالجرذان السجينة في جحورها ؟ ولماذا يقتل طفلي بالصدفة لمجرد انه وقف على الشرفة ؟ .

منذ البداية كان علينا ان لا نكتفي بالحياد . كانت (المسالمة) جريمتنا ، وهكذا ، حين دار حوار الرصاص وجدنا انفسنا خارج اللعبة ، وضحايا لها في آن واحد . (نحن المجرم الأول الحقيقي لاننا سمحنا لذلك كله بأن يحدث تحت ستار الحياد !) ... هكذا يصرخ صوت في داخلي وانا أتمتم : وداعاً يا ناديا ...

تذكرت ناديا الأخرى صديقتي الفلسطينية ..

سألتها منذ أيام هل سترحلين عن بيروت مع النازحين ؟ .. قالت نصف ساخرة : « نحن لن نغادر بيوتنا ... فقد تعلمنا درساً في فلسطين . الآن جاء دوركم لتتعلموا هذا الدرس ! ... وثمنه دوماً باهظ » .. سعيد من له مرقد عنزة في لبنان ؟ لا .. بل مرقد سلاح . ومرقد جثة ..

فالأرض لمن هو على استعداد للموت من أجلها ... دوماً ...

* * *

Akhawia.net

كابوس ٦٩

ضحك المحامي الاستاذ انيس طويلاً وهو يستمع إلى حكاية إلقاء القبض على أخي بتهمة حمل سلاح غير مرخص ! ... ضحك أكثر من حجم النكتة ، وعبثاً حاولت افهامه انها قد تكون نكتة لكن أخي حالياً في السجن ... أصر على الضحك ، فقط ...

اي جنون يجتاح هذه المدينة ؟ صار من الصعب ان يدور اي حوار منطقي سليم بينك وبين اي انسان .. كأن الحرب الأهلية طوال الأشهر الأخيرة أصابت أهلها جميعاً بمس ما .. كأننا جميعاً شربنا من نبع الجنون .. بعضنا يرحل .. بعضنا يضحك .. بعضنا يتنحر .. بعضنا يريد ان يرقص الدبكة .. بعضنا ما زال متضايقاً من الأحداث بسبب تأثيرها على (الحركة السياحية) ! ...

غمرني حزن عميق .. ليست مأساتي انني حيادية .. فأنا منحازة .. مأساتي انني لا اقدر على معاقرة السلاح واكره العنف ... اما الآن فأتمنى لو كانت كتبي كلها مطافىء حريق وقطناً وشاشاً معقماً ، ولو كانت رسائل القراء إليّ مكتوبة على ارغفة الخبز ، اذن لاكلتها على الأقل ! ...

* * *

كابوس ٧٠

صراخ حاد ...

رغم شلال الرصاص والمتفجرات ، فأنك لا تملك إلا أن تميز الصوت الانساني مهما كان خافتاً ...

ركضت إلى النافذة وتلصصت على الشارع الذي يفصل بيني وبين فندق « الهوليداي إن » على الرصيف المقابل ...

وعلى الرصيف ثمة رجل مصاب برصاصة ، وهو ممسك بكيس ...

أتأمله ، والشارع بامتاره الخمسة يصير دهراً وأزماناً تفصلني عن الجريح .. انه يتوجع ويصرخ بصوت حاد ... وانا ارقبه عاجزة عن مد رأسي من النافذة ... وكنت اعرف انه سيظل يصرخ حتى يموت ، تماماً كتلك السيارة التي انطلق بوقها في الليل وظلت تعول وصوتها يخفت تدريجياً حتى فرغت بطاريتها ... سيظل يعول ، في البداية بصوت مرتفع كما يفعل الآن ثم سيخفت صوته ، ويغرق شيئاً فشيئاً في اسفلت الرصيف

Akhawia.net

الذي صار مستنقع رمل متحرك اسمه الموت ... وسينطفىء صوته حين تفرغ بطارية الحياة في جوفه ... كان مروعاً ان أرقب انساناً يموت دون ان اقوى على ان أفعل اي شيء لاجله غير مراقبته من خلف النافذة ، اتألم ، وفي الوقت ذاته أفرح فرحاً شريراً لانه هو الذي يموت وليس انا ! .. ها هو صوته قد بدأ يخفت .. انه يتوجع واتمنى لأجله ان يموت سريعاً ، مرة قلت لحبيبي يوسف : « اريد منك هدية لعيد ميلادي .. اريد ان تحضر لي ذلك السم الذي يكفي ان تضعه على لسانك حتى تموت فوراً . انه اعظم هدية يمكن ان يقدمها عاشق لحبيبته . انه يهديها القدرة على الموت متى شاءت » .

اذكر انه ضحك يومها طويلاً . واعتبرها نكتة سمجة ! لماذا لا يستطيع العشاق ان يلحظوا كم الموت قريب والوجع ممكن ؟ ... لو كان هذا المسكين يحمل السم في جيبه ، لانطفأت صيحاته ولاستراح ، ولأراح ... لعل أهل الحي يرقبونه مثلي من خلف النوافذ ، ويموتون معه ... يتوجعون معه .. كلما مات حيّ أمام اعيننا متنا معه جميعاً ..

منذ مات يوسف وفكرة الانتحار تراودني .. حسناً .. كل ما علي ان افعله الآن هو ان اقطع الشارع أمام بيتي ، من الرصيف إلى الرصيف الآخر ... سأموت موتاً مجانياً مضموناً ، وستستقر في رأسي عشرات القذائف .. كأن الرصيف المقابل صار رصيف العالم الآخر ، واسفلت الشارع صار نهر الموت الرمادي ... نهر اللاعودة .. فلماذا لا أقطع الخطوات الباقية اليه بكل هدوء ودونما تردد ، ولماذا لا أموت مع هذا الرجل الذي لم أر له وجهاً من قبل؟ ستكون رحلة الموت أقل غربة على الأقل... رحلته ورحلتي .. سأضمه إلى صدري وسأقول له : جئت اليك يا يوسف فخذني . في لحظة الاحتضار يصير أي رجل حبيبي ما دام يمثل لي رجال العالم أجمع ، كيوسف ! لست جادة . فكرة الانتحار تراودني فقط . اتعامل معها بترف غير جاد . اعترف .

لا . لن اقطع الشارع . لن اذهب إلى الرصيف الآخر . اريد ان اعيش .. يجب ان أنجو من هذا الجحيم .. وبعدها سأعيد النظر فيما اذا كانت القنبلة اليدوية أكبر من المحبرة ، والرصاصة أكبر من القلم أم لا ... ووجدتني ابحث بعيني عن سيارتي واقدر إمكانية الهرب بها ... وكان الزجاج المكسر يغطيها ! . ولعل صوت احتضار السيارة الذي ملأ الحي بزعيق بوقه كان صوت احتضارها .

* * *

Akhawia.net

.. أن أهرب من هذا الجحيم ...

ما دمت لست مقاتلة (حتى اشعار آخر) ، ولا أعرف كيفية استعمال السلاح ، وما دام بيتي مليئاً بالنوافذ وليس ملجأ ذرياً ، وما دامت سيارتي عادية وليست مصفحة ، فعليّ محاولة الخروج من ساحة الحرب هذه حية ..

الهـــاتف .

انه العم فؤاد . قال انهم قلقون فقد استيقظوا ولم يجدوني . طلبوا مني الهبوط وتناول طعام الغداء معهم . لماذا استعمال التلفون بين بيتهم وبيتي وسلم قصير يفصل بيننا ؟ . كنت اعرف ان ذلك يعني ببساطة ان أحداً بينهم لا يجرؤ على الصعود لبيتي المعرض جداً للرصاص ، ولا يريدون ان أموت كي لا تفوح رائحة جثتي . تكفينا الجثتان المرميتان في عرض الشارع . لم يجرؤ أحد على الاقتراب منهما حتى الآن ، وحتى القطة التي جلست البارحة أمام الجثة الأولى كأنما تندبها ، هربت اليوم من رائحتها ! ...

نزلت اليهم . امين في حالة هياج ضد الذباب . كان دائماً شاباً مطيعاً ومثالاً للابن البار ، ولذا بدا لي هياجه ضد الذباب مضخماً كأنه تفريغ لرفضه الداخلي أو كأنه التوكيد الوحيد لوجوده ...

كان يقفز خلف الذباب الذي بدا لي كبيراً ومفترساً ... قتل حتى الآن خمس ذبابات وما زال يقفز داخل البيت الذي تهزه الانفجارات وهو يطاردها ... كانت عملية قتل الذباب لامتناهية فقد كانت النوافذ مفتوحة (من الخطر اغلاقها خوفاً من الانفجارات وتطاير الزجاج ، وهكذا كان بوسعه ان يتابع معركته الدونكيشوتية إلى ما لا نهاية ...)

اما انا فقد جلست والعم فؤاد . الح علي بمشاركته في شرب العرق . رفضت . قال : « ستندمين ندامة الكسعي » . اقتنعت . ولم اسأله حكاية الكسعي وانما بدأت اشاركه شرب العرق . كنا صامتين واجمين إلا من تثاؤبه بين حين وآخر ... بعد قليل عاد يحاول تذكر ذلك البيت الشعري المنسي وصار يكرر : « ومن يدرك الدهر ... ومن يدرك الدهر » .. وكالعادة (أدركه) النوم وراح في اغفاءة عميقة ... أمين ما زال مستغرقاً في شن حربه على الذباب ... اشعر بوحدة لا حدود لها تغمرني ممزوجة بأصوات القنابل التي

Akhawia.net

تتهددني في كل لحظة ... قررت : يجب ان اخرج من هذا الجحيم ، بأي ثمن . لن اقتل بالضرورة ، ها هو أخي قد استطاع النجاة .. كان هنالك سيف عربي عتيق معلق على الجدار كتعويذة خرافية . حملته ، وشهرته وفتحت الباب . الخادم يتأملني بهلع وفي عينيه قرأت عبارة : انت ثملـــة ...

وتذكرت انني شربت كثيراً من (العرق) لكنني في تلك اللحظة كنت واثقة من انني صاحية (ككل الثملين !) ..

خرجت إلى الحديقة وصوت العم فؤاد يلاحقني : « ستندمين ندامة الكسعي » ، وكانت الأبنية الشاهقة تحيط بنا من كل جانب « والهولياياإن » كغول خرافي وانا احمل سيفي العربي العتيق في وجهه .. تذكرت الأساطير العربية القديمة ، وتخيلت سيفي مسحوراً أستطيع ان أشطر به الفندق نصفين ، وتابعت تقدمي نحو باب الحديقة لأخطو إلى الرصيف فالشارع .. قررت ان اجرب سيارتي في البداية ، وان تحركت هربت بها ، وان خذلتني فليس أمامي سوى السير في الشارع شاهرة سيفي ! .. لم يخرج ورائي لا أمين ولا الخادم ... لم يحاول أحد منعي . كنت في مرمى الرصاص ، والاقتراب مني مغامرة ! .. وصوت العم فؤاد يرن في اذني « ستندمين ندامة الكسعي » واقهقه بصوت عال كالمعتوهة ... احمل السيف العربي الصدىء وامشي به نحو باب الحديقة ..

قررت ان القناص لن يقتلني فوراً . سيثير منظري فضوله على الأقل . لقد شاهد أشخاصاً يحملون العلم الأبيض او كيس الخبز أو طفلاً وقتلهم جميعاً ، لكنه لم يشاهد بعد مجنوناً يخرج عليه شاهراً سيفه ! كان أملي في الحياة معلقاً بالروح (الفكاهية) لدى القناص ! رغم هلعي شممت رائحة شجيرة الياسمين وكان عدد من القذائف الفارغة قد استقر تحتها .. رغم هلعي فرحت (بأن الشمس تلسعني) وكانت هذه أول مرة أقف فيها تحت السماء الزرقاء منذ أربعة أيام .. أو أكثر ؟ ..

وصلت إلى الباب الحديدي للحديقة دون ان تستقر في رأسي رصاصة . كان ذلك بحد ذاته انتصاراً كبيراً . ظللت شاهرة سيفي الدونكيشوتي بيد ، محاولة فتح باب سور الحديقة باليد الأخرى .. فوجئت به مقفلاً بسلسلة حديدية ! ...

وهنا فقط بدأ الرصاص ينهمر عليّ من ناحية فندق « الهولياياإن » اللعين . التصقت بالعمود احتمي به ، وتوقف اطلاق النار ... وقررت العودة إلى البيت لاحضار المفتاح ..

Akhawia.net

ولم أكد أخطو خطوة واحدة حتى عاد وانهمر الرصاص . وعدت إلى موقعي من العمود .. بعد دقائق أحسستها عمراً عاودت الكرة ، وكان الرصاص يتطاير عن الأرض في الاتجاهات كلها .. وفهمت اللعبة .. قناص « الهوليداي إن » يريد ان يتسلى ، وها أنا الآن سجينة العمود والباب المقفل .. أية خطوة مني إلى الخارج أو إلى الداخل عقابها الموت .. كانت الشمس تحدق بي عبر السماء الزرقاء ، وبدا لي الأمر مضحكاً ... ها أنا سجينة ، دونما جدران ولا قيد .. سجينة هذه السماء الشاسعة والضـــوء والأشجار والتراب ... لا أحد قيدني إلى العمود لكنني ملتصقة به .. وشعرت بذل لا حدود له ... ذل سجين بلا قيد .. سجين غرفة لا مرئية اسمها الخوف . شفافة الجدران حتى لا ترى ، تأتيك عبرها أشعة الشمس وزرقة السماء ورياح الخريف ، ولكن طعمها كلها قد تبدل ... صار له طعم الذل ... طعم السجون الشفافة الجدران ، اللامرئية القيود : أبشع السجون!..

ووعيت حقيقة مروعة : اذا لم أقتل حيث أنا ، فسيكون عليّ ان أنتظر غروب الشمس حتى أستطيع التسلل إلى بيتي بمأمن من القناصين . ووعيت كم انا ثملة ، ومضحكة ... وغسلت السيف العربي بدموعي وقد الصقت رأسي إلى حده غير الحاد وأنا أبكي كمن يبكي على صدر والده العجوز المشلول ... وندمت (ندامة الكسعي) الذي لا أعرف ما حكاية ندمه ...

لم استطع الانتظار حتى حلول الظلام . صربت متوترة ومتضايقة ومفترسة ... وركضت باتجـــاه البيت كأي حيوان في الغابة غلبته غريزته على حكمته ، ولم تنهمر حتى رصاصة واحدة ! ..

لعل القناص قرر عدم قتلي اليوم ، ليتابع اللعب بي ومعي في الأسابيع التالية ! .. حين بلغت باب العم فؤاد كنت قد صحوت تماماً من آثار ما شربت. لم اقل شيئاً وانما تابعت الصعود إلى بيتي ... واقسمت الا أذوق الخمر ثانية ، وكنت اعرف انني سأحنث بوعدي في اليوم التالي ...

* * *

كابوس ٧٢

أدور في البيت كما يدور حيوان سقط في فخ مميت . أئن ، واسمع صوتي يمتزج مع أنين مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة ... كلنا في الفخ ، وصاحب الدكان في مكان

Akhawia.net

أمين ... ولعله في هذه اللحظة يرقبنا من بعيد بمنظاره المكبر .

الهاتف . صوت المذيع شريف . أستقبله بلهفة . يقول لي انه أخبر مركز الارتباط بوضعي (العسكري) ، وسيتم انقاذي الليلة برفقة آل جنبلاط الذين يبعد بيتهم عن بيتنا حوالي مئتي متر (بعيداً عن « الهوليداي إن » ولكنه في منعطف الطريق ، اي ان رصاص قناصة « الهوليداي إن » لا يطالهم .. وستأتي مصفحة ، تحملني واياهم ، واسرة حسين شقيق المذيع شريف الذي يقطن في البناء المقابل لآل جنبلاط .. بناء الدكتور ادريس) .

متى ؟ بعد الغروب ... سيتصل بي ثانية . اعطيته رقم هاتف العم فؤاد وقلت له انني سأكون بانتظارهم هناك في الطابق الأول ...

انه الأمل ... يبرعم فجأة وسط الجليد كنبتة خضراء تشق دربها في القلب البشري مهما تراكم الحزن .. نبهني إلى ان داخل المصفحة لا يتسع لحقائب وغيرها ، ونبهته إلى انني سأخرج إليها كالذاهب إلى الحج ... ملتفاً بكفنه ! ...

* * *

كابوس ٧٣

الانتظار ... الرمل الأزرق الفضي لا يريد ان يركض عبر كراته الاثيرية .

الانتظار ... حقل من الساعات المكسورة العقارب ... انظر إلى ساعة يدي فأجد ان عقربيها قد ماتا واختفت جثتهما .. هنالك داخل الساعة أرقام ، مجرد أرقام ، ولكن لا عقارب ...

الانتظـــار ...

قلب مطاطي معلق في الفراغ ، يزداد ثقلاً وانحداراً نحو الأسفل مع كل لحظة ...

الانتظـــار ...

حقل من الألغام اطلقوك فيه مربوطاً إلى حصان يركض على غير هدى ..

عدت إلى العم فؤاد ازف اليه النبأ . فوجئت به يقول لي بقرف : « ستندمين ندامة الكسعي » ...

ولم اسأله من هو الكسعي المشؤوم ولماذا ندم وماذا فعل أو لم يفعل ، ولم يحاول هو ان يشرح لي حكاية الكسعي هذا وانما ظل يردد : ستندمين ندامة الكسعي ..

أما أمين فقد لاح في عينيه ظل حسد ... يحسد حريتي ، فأنا بطريقة ما (شاب) حر

Akhawia.net

في اسرتي ، وهو رغم ذكورته يلعب في حياة والده دور (الانثى) الشرقية في بيت رجعي ... كل الرجال في المجتمعات العشائرية يلعبون دور (الانثى الشرقية) في حياة والدهم ولا يدرون ! ..

كنت اعرف انه يتمنى الهرب مثلي . لكنه مضطر لتبني موقف والده ، ووالده قرر الموت مع تحفه وأوسمته وأحجار بيته ... أم تراه هو أيضاً يفضل الموت مع ارثه الموعود من تحف ورياش فخمة واوان ذهبية ؟ تراهم غسلوا دماغه حتى من حب الحياة ، وصارت الحياة لديه مرادفة للممتلكات ؟

* * *

كابوس ٧٤

الهاتف . النقيب فتحي يحدثني اعطاه رقم هاتفي المذيع شريف . يقول الملالة المصفحة قادمة خلال دقائق .

ارهف السمع . هاتف آخر . انه حسين شقيق المذيع شريف . يسألني كم عددنا ؟ اقول له : شخص واحد **(كنا اثنين انا ويوسف ، لكن يوسف لا يحتاج إلى احتلال مكان في المصفحة ، لانه يحتلني انا) ...**

هذه المرة لا اكرر غلطة الظهر . اطلب من أمين مفتاح باب الحديقة لأحمله معي . أمين يعارض قليلاً متذمراً بالفرنسية ثم يرضخ . أتفق مع أمين على ان اتركه في القفل . (هذا اذا لم يقتلني قناص « الهوليداي إن » وانا اجتاز الحديقة المكشوفة الممر بين الدخل وباب البيت) ...

الانتظـــار ...

وأخيراً أسمع صوت مصفحة .. اسمعها تهدر من بعيد .. من بعيد .. تزداد النبتة الخضراء في قلبي نمواً وهي تشق الجليد وتخرج رأسها .. اخرج إلى الليل ، والمجهول ، لانتظارهم امام الباب كما اتفقنا ... اسمع صوت المصفحة رغم الطلقات المتقطعة ، لكنه صوت ثابت العلو ، لا يخفت ولا يرتفع . كأنما المصفحة واقفة في مكانها .. ماذا حدث ؟ . ارسل ببصري في الظلام فلا أرى شيئاً ، واقرر انها ربما كانت متوقفة لإصعاد آل جنبلاط وجيرانهم قبل المجيء إليّ ..

ولكن ذلك غير ممكن ... بيتي يقع في مركز الخطر ، في منتصف الطريق تماماً بين

Akhawia.net

المتقاتلين ، والمنطقي هو محاولة إحضاري أولاً بدلاً من تعريض حياة الباقين لمزيد من الخطر ...

هكذا كنت افكر وانا انصت ، واحاول ان اتخيل ما يدور ، وازداد التصاقاً بالعمود الذي أحتمي به ..

وفجأة انفتحت أبواب الجحيم دفعة واحدة . سمعت انفجارات مروعة ، وتمزقت النبتة الخضراء في صدري .. وجدتني التصق بالعمود الذي أحتمي به ، كتلة من اليأس ، مثل وحيد في جزيرة وقد خلفته آخر سفينة نجاة .. والرصاص يلفني كالزوبعة .. والانفجارات تزلزلني .. والليل مظلم وموحش كما لم يكن أبداً .. وانا مذعورة ووحيدة ومهجورة وعاجزة حتى عن الصراخ .. كان فمي مليئاً بالرماد والدم والبارود .. والدمع .

لم يعد الظلام دامساً ... كان هنالك شيء يحترق عند المنعطف الملاصق لقصر آل جنبلاط على بعد ٢٠٠ متر مني .. وكنت استطيع ان ارى وهج النار منعكساً على الرصيف المقابل ... وكانت الريح تحمل إليّ رائحة الهشيم وتمسح وجهي بالهباب الأسود .

وقفزت إلى رأسي دفعة واحدة جميع صور الحروب الاهلية التي قرأتها في الكتب .. وتذكرت مشهد الحريق في رواية (ذهب مع الريح) .. ووجدتني اسقط على الأرض شبه راكعة ... ووجدتني اصلي لإله هذا الكون الشاسع ... ووجدتني حرة في ان اناديه من هذا القفر المحترق ، لا بالضرورة من مئذنة جامع او ساحة كنيسة ...

هل يمكن ان يحدث هذا كله لمجرد شجار بين الذين يفضلون مناداته عبر مئذنة أو كنيسة ؟ .

لا .. لا .. لا ...

هذا قناع للشجار الحقيقي ... لماذا لا يواجهون الحقيقة كما هي بدلاً من اتهام محمد وعيسى بالشجار ؟ ... لماذا لا يعترفون بان الشجار ليس على امتلاك قصر من سحاب في السماء وانما على امتلاك ناطحة سحاب في الأرض تعلو حتى السماء !

* * *

كابوس ٧٥

بحدسي ، أدركت انه لا نجاة لي ، الليلة على الأقل . وان شيئاً مروعاً قد حدث ... وعدت إلى بيت العم فؤاد صامتة . لم يسألني أحد شيئاً ، لكن نظرات العم فؤاد كانت

Akhawia.net

تصرخ بي : ها انت نادمة ندامة الكسعي . ألم اقل لك ؟ . أما أمين فرمقني بنظرة مليئة بالشماتة . واتخذت مقعداً قرب التلفزيون حيث كان وابنه يتابعان برنامجاً ما ورميت بجسدي المنهك ... عبثاً أتابع البرنامج .. عبثاً اركز نظراتي على الشاشة ، لا ارى داخلها الا وقفتي أمام الباب ، والانتظار ، وصوت المصفحة ، ثم أبواب الجحيم التي انفتحت ، والانفجارات ، والحريق ، وصوت المصفحة الذي اختفى ...

نشرة الأخبار . المذيع يتحدث والصورة تتضح لعيني . لقد وصلت المصفحة ولم اكن واهمة حين سمعتها ، ولكن القذائف التي اطلقت عليها اشعلت النار فيها ، وفي محطة البنزين المجاورة : محطة جنبلاط ..

واستسلمت لمصيدة الفئران المشتعلة التي اتقلب في فكها منذ أيام كاستسلام مخلوقات دكان بائع الحيوانات الاليفة ... وتساءلت : ترى كم سيستغرق مني الأمر حتى أصير مثلها ... متى أصير مثلها ؟ متى يفتح امامي باب الحرية فلا أخرج ؟ متى يصير الذل والجبن طبيعة ثانية في اعماقي ؟ متى يسكن اليأس سهولي وحقولي فلا تنبت في قحطها نبتة الأمل الخضراء ؟ هل يمكن ان يحدث ذلك لي ؟ متى تدجنني الحرب الاهلية ؟ وأهل بيروت ، ألم تدجنهم هذه الحرب الشرسة ام العكس ؟ ألسنا جميعاً في الدرب إلى التدجين ، البعض أكثر من الآخرين ، ولكننا جميعاً نمشي في الدرب نفسها ام بعضنا فقط ؟ .. ولكن ، ألسنا جميعاً منذ أعوام مثل كائنات دكان الحيوانات وكل ما في الأمر هو أننا كنا نتوهم أننا أحرار لمجرد أننا قادرون على التحرك الجغرافي ؟ . وماذا عن التحرك التاريخي ؟ واذا كانت حرية الحيوان تتوقف على الحرية الجغرافية ، أليست حرية الانسان جغرافية وتاريخية في آن واحد ؟ إلى أي مدى شاركنا في صنع مصيرنا ومصير الآخرين ؟ ...

كانت هذه الهواجس تنتابني ، وبمرارة اتساءل : ترى كم تجربة فاشلة من هذا النوع سأمر بها قبل ان استسلم لليأس وارفض أية محاولة لانقاذي او استسلم لنداء الثورة حتى عبر العنف لا عبر القلم وحده ؟ هل يمكن تدجيني أنا الفرس البرية المفترسة ، انا غجرية الحرية والقرى والجبال والفجر ... هل يمكن لقناص « الهوليداي إن » ان يفلح في تدجيني ؟

* * *

Akhawia.net

انتظر شخير العم فؤاد كي أزور رفاق المصير : جيراني في دكان بائع الحيوانات الاليفة ..

لم اجرؤ على الخروج أمامه فهو وأمين والخادم سيعتقدون بعد (خضات) هذا النهار انني جننت (بالاحرى سيكتشفون ذلك !) وسوف يقيدونني بالحبال بكل راحة ضمير معتقدين انهم بذلك يسدون خدمة لي ولأسرتي ! .. ويحافظون على حياتي ...

أخيراً ، غرق الجميع في النوم .

أنزلق من فراشي البائس . الفراش نفسه الذي ماتت فيه زوجة صاحب الدار .. بين ذراعي ! ..

ها انا ثانية أمام نافذة المخزن ... انها في موضعها حيث تركتها البارحة ... أحاول انتزاعها فأجد صعوبة في ذلك ... ألحظ انها مثبتة باحكام . اذن هناك من جاء بعدي وأعاد تثبيتها ... اضربها ضربات أجهد في ان تكون خافتة كي لا توقظ أحداً ... وحين يتعالى اطلاق الرصاص اضرب بالحجر بشدة منتهزة فرصة الضوضاء التي صارت مألوفة ...

انفصلت الشبكة ذات الشبك المعدني عن إطارها ... وتدليت إلى الداخل ، وقفزت كما في الليلة السابقة ، وانا اتساءل بلهفة وحرقة .. ترى هل هربوا ؟ ...

لقد تركتهم البارحة وأبواب أقفاصهم مفتوحة للحرية والفضاء والكواكب ، وكسرت لهم نافذة المخزن ، فهل هربوا ؟ .. صحيح انني كنت اسمع اصواتهم طوال النهار ، ولكن ربما كانت هذه أصوات بقية سكان الحي السجناء .

كانت قفزتي الليلة مؤلمة .. ربما كنت أشد اضطراباً من البارحة واسأت تقدير ارتفاع النافذة في الظلام ... شعرت بألم متوسط الشدة في قدمي اليمنى ، فجلست على الأرض ريثما تألف عيناي الظلمة وأرى محتويات الدكان ...

ولكن أصواتهم افهمتني كل شيء .. ولعل صوت سقطتي أيقظ النائمين منهم .. عادت صرخاتهم المرتاعة ، البائسة ، الذليلة الشاكية تتعالى ... تلفني كأغصان أشجار مسحورة ... أشعر انني سقطت داخل وردة وحشية نصف حيوانية وها هي قد أنشبت أشواكها في شراييني لتمتص دمائي ، فقد شاهدت في النور القادم من الشارع الأقفال وقد أعيد إغلاقها ... ترى هل اغلقتها الحيوانات بنفسها ؟ هذا طبعاً غير منطقي . المنطقي

Akhawia.net

هو ان صاحب الدكان ، او من ينوب عنه قد جاء كالعادة يتفقدها ويطعمها لقمتها الذليلة (كي لا تموت ويخسر صفقة بيعها) وشاهد أبواب اقفاصها مفتوحة والنافذة مخلوعة .. فأعاد إقفال الأبواب ، وأحكم سد النافذة .. ولعله أيضاً ظن سارقاً قد حاول سرقتها وفشل في آخر لحظة لسبب ما .. كالخوف من قذيفة مفاجئة أو مقدم سارق آخر يحمل سلاحاً أكثر تطوراً .. كان هذا هو التفسير الوحيد المنطقي .. ومع ذلك لم أكن قانعة به . تخيلتهم بعدما غادرت الدكان البارحة ، والببغاء يخطب فيهم مهاجماً عمل (الغريب) التخريبي الذي قام به – أي عملي أنا – ويقول لهم ان طردي من الدكان أمر حيوي لاجل تعايشهم وسلامتهم وراحة بالهم ورضى صاحب الدكان عنه ورضى الزبائن ... وتخيلت البعض يهتف بسقوط (الغريب) ، اي بسقوطي ، ثم يخرجون من اقفاصهم إلى النافذة مستبسلين لاعادة اغلاقها في وجهي ، كي لا تتسلل اليهم افكاري (الهدامة) واعمالي (التخريبية) ، وبعد ذلك يعود كل منهم إلى قفصه ليغلقه خلفه ! ..

ادور بين الاقفاص مذهولة ... لم يهرب أحد ... بل ان نظرات المخلوقات توحي لي بأنها قد نسيت كل شيء عن تجربة البارحة ... لقد عادت إلى انينها الموجع ، كأنها ترغب في مجرد الشكوى لكنها ليست على استعداد للثورة ... لم يقتلوا فيها غريزة الألم وانما غريزة التبديل ... إنها غاضبة ، لكنها نسيت الطريق إلى الغابات ...

ووجدتني أركض من جديد بين الأقفاص .. هذه المرة لم اكتف بفتح أبواب الاقفاص ، بل وطردت الحيوانات منها ... اخرجتها بالقوة ... كان واضحاً ان القط لن يأكل الفأر ، وان الكلب لن يعض القط ، وان البؤس المشترك هو القاسم الأساسي لسلوكهم ... لم يعودوا أرانب وقططاً وعصافير وكلاباً وانما مجرد نوع واحد حيواني أكل ملامحه الذل والهوان ... تركتهم خارج أقفاصهم ، وتسلقت النافذة وجلست إلى جانبها في ظلام الحديقة اتلصص ... ماذا يمكن ان يفعلوا ؟ ...

وكما في الكوابيس التي لا يصدر عنها صوت ، أذهلني ان كل حيوان عاد إلى قفصه بهدوء ، دون ان يسمع وقع اقدامه على الأرض ، كأن ساحراً شريراً غامضاً يتحكم من بعيد بمصائرها ! ... وعاودت القفز إلى الدكان وأغلقت أبواب الأقفاص ... لا لسجن الحيوانات ، فهي سجينة أقفاصها اللامرئية ، ولكن كي لا يلحظ صاحب الدكان حين يأتي لتفقدها في الغد ان يداً (غريبة) تحاول انقاذها ... وكي لا يُحكم بالتالي إقفال

Akhawia.net

النافذة ، ويفوت علي فرصة محاولات أخرى .. كان مصير مخلوقات الدكان قد بدأ يستولي على تفكيري واهتمامي ... لا على فضولي فحسب .. كنا شعباً واحداً ! ..

* * *

كابوس ٧٧

هل هو خنوع الحيوانات وعودتها الذليلة إلى أقفاصها هو الذي أبعد النوم عن عيوني ؟

أم أنه أنينها الذي عاد يتصاعد .. إنها تشكو لكنها لا تصنع شيئاً لتبديل أسباب شكواها ... كأن خللاً ما قد حدث في داخلها .. كأن الشريط الذي يوصل الألم بالارادة قد انقطع منذ زمن بعيد وهي قد تعلمت ان تتألم وان تتقبل هذا الألم كأمر واقع وقضاء لا يرد ...

ام انه صوت المتفجرات التي لم تهدأ طول الليل ؟ ..

ام انها الذكرى الحارة لمحاولة هربي الليلة من هذا الجحيم وفشلي في ذلك ؟ ..

كان بعض الانفجارات عنيفاً بما فيه الكفاية لتحريك المنزل بأكمله ، وقد استيقظت أكثر من مرة من نومي الكابوسي ورأسي يصطدم بالجدار الملاصق ... وقبعت في قعر العتمة والدوي وقررت : لعل الرصاص والقنابل التي سمعتها في الأيام الأخيرة تكفي لتحرير فلسطين ! ... وانطلق صوت من داخلي : ولكن تحرير فلسطين بحاجة إلى تحرير الانسان العربي أولاً .. وتحرير مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة يحتاج إلى ثورة ... ولكن ، هل هذه هي الثورة ؟ ام تحضير لها ؟ تحديد أكثر وضوحاً لملامحها ؟ والثورة بحاجة إلى ضحايا ووقود ... ولكن هل من الضروري ان أموت هكذا ، عزلاء وخائفة ومثقلة بالحيرة ؟ واذا قتلت الآن ، فسأكون مجرد قتيلة لا شهيدة ! ... المهم ان يكون في موتي ما يجعل الكون أكثر انسانية . وفي هذه اللحظة ، موتي سيجعل الشارع أكثر عفونة ! هذا كل ما في الأمر . سأموت الآن كخروف لا كانسان . الموت بدون جدوى يجعل من الانسان ضحية غبية لا أكثر . ولن أموت هكذا ! اختيار الموت لمجرد الموت ليس خدمة بل هو هرب ، انه مجرد ضعف أمام (الرأي العام) الذي يمجد القتيل غالباً – أي قتيل – ويجد في مجرد الموت بطولة ويجد في رفض العنف الغبي عاهة !! ... وما كل موت ببطولة .. المهم ان يموت الانسان موتاً له معنى ، والأهم ان يسبق ذلك الموت

Akhawia.net

حياة لها معنى .. الانسان الذي يموت صدفة ، يصبح قتيلاً أو قاتلاً — كأي خروف — وليس شهيداً .

موت الانسان كي يصير العالم أكثر انسانية هو الذي يميز بين (القتل) و (الجهاد) وبين (الضحية) و (الشهيد).

شيء آخر يقلقني وهو قتال الحيوانات فيما بينها بدلاً من تمزيق العدو الأول والحقيقي . الأمر ذاته نمارسه نحن . قتالنا فيما بيننا أكثر بكثير من قتالنا مع عدونا الحقيقي : اسرائيل . يهدر في داخلي صوت : ان العدو حين يكون من بعضنا فقتاله هو المرحلة المحتومة لقتال العدو فيما بعد . هذا يبدو لي صحيحاً ومع ذلك يظل قتال جيراني واحبائي هو أبغض الحلال إلى قلبي مهما كانت المبررات العقلية لذلك .

* * *

كابوس ٧٨

بدأ الممثل يبكي بكاءً مراً غير مسرحي ، وهو واقف أمام المرآة يحدق في صورته ... انه لم يعد يحتمل مأساته وهو يفكر جدياً بالانتحار .. او الهرب ...

مأساته هي ببساطة : وجهه ...

انه ليس مشوهاً ... بل ان الأمر أسوأ من ذلك .. انه ببساطة يشبه الحاكم ... بل ان وجهه يكاد يكون نسخة (طبق الأصل) عن وجه الحاكم ..

كان ذلك في البداية مدعاة لنجاح نانو بعد ان ظل أعواماً طويلة مغموراً على المسرح..

لكن شبهه بالحاكم دفعه إلى تقليده في مسرحيات فكاهية أقبل عليها الجمهور إقبالاً كبيراً ... وطار صيته ، وصار وجهه باباً للنجاح .. بل ان الحاكم نفسه دعاه لتقديم إحدى مسرحياته في قصره المنيف ، وهناك ظنه حرس القصر الحاكم نفسه — شخصياً ... أما الحاكم فظن انه أمام مرآة وطرب للتشابه وضحك خصوصاً حين قلده أمام عينيه ، وأثار إعجاب الجميع وذهولهم بالتشابه الذي لا يصدق بينهما ... وضحك أفراد أسرة الحاكم واصهرته وحاشيته لذلك ، وربتوا على أكتافه ، ونفحوه بمئة دينار ومدفع رشاش وكانت ليلة من ليالي الف ليلة إلا ليلة ... ولكن عجلة الزمان دارت ، واشتعلت الحرب الأهلية والحاكم صامت لا يقول شيئاً ولا يظهر أمام شعبه وصارت الدماء تسيل أنهاراً في المملكة السعيدة دون ان يقوى أحد على وقفها ... وركض الناس فباتوا ستة

Akhawia.net

أشهر بلياليها تحت شرفة الحاكم على أمل أن يفتح نافذته ويخاطبهم ، لكن النافذة ظلت موصدة وجاءت الأوبئة والأمراض وهجم الشتاء ولم تنفتح نوافذ الحاكم وكانوا كل يوم يسألون عنه فيقول لهم الحرس : انه نائم ..

وأخيراً تعبوا وتفرقوا ...

وكان نانو ، الممثل المسكين طوال هذه الأيام مختبئاً في بيته ... في البداية كان لا يكاد يخرج لشراء الخبز حتى يحيط الناس به ظانين انه الحاكم ، حاملين له شكاواهم ومظالمهم ، عارضين عليه جروحهم النازفة والسكاكين المغروزة في أجسادهم في كل موضع ... وهكذا فقد لازم داره ... وبعد إنقضاء ستة أشهر على نوم الحاكم ، وازدياد النقمة عليه ، لم يعد نانو يجرؤ على الخروج من بيته ... وصار يخاف على حياته ، فالشبه الكبير بينه وبين الحاكم وهو الذي كان مدعاة لسعادته وحظه فيما مضى ، صار اليوم تهديداً جدياً لبقائه ... لو لمحه أحد في الشارع لسارع إلى قتله ، متوهماً أنه الحاكم ، الغافل عن بؤس المملكة ... لن يتركوا له مجالاً للتوضيح أو التفسير . سوف يقتلونه فوراً وينتهي الأمر ..

وهكذا صار عليه ان يرتدي جوربا فوق وجهه أو قناعاً كي يذهب لزيارة حبيبته التي لم تعد راغبة في الزواج منه . ورغم انها لم تعلن ذلك بوضوح ، إلا أن اشارتها إلى « وجهه النحس » تكررت مؤخراً أكثر مما يجب ، وكانت تعزو تأجيل الزواج إلى سوء الأحوال ...

في البداية كان يلجأ إلى الماكياج المسرحي ، وباروكة شعر هيبية كي لا يذهب ضحية شبهه بالحاكم النائم ، إلا أن هذه الحيلة لم تعد تنفع في الخريف مع تساقط الأمطار وغسيل الماكياجات كلها ...

ولكن الأقنعة الأخرى لم تكن مأمونة ... فالمسلحون وحدهم هم الذين يرتدونها ... وكان حين يرتديها يصير بحكم المسلح ... وصحيح ان ذلك وفر عليه أجرة التاكسي عدة مرات ، حيث كان يكفي ان يصعد في اي تاكسي ويأمره بالانطلاق إلى بيت حبيبته لينال توصيلة مجانية ودعوات بطول العمر لأنه أبقى على حياة السائق ولم يخطف سيارته ! ... إلا أن قناع المسلح سبّب اطلاق الرصاص عليه من مصدر مجهول أكثر من مرة ، وقد نجا باعجوبة ... كان ذلك كله محتملاً حتى بدأ الكابوس الحقيقي ، يوم

Akhawia.net

قرع بابه مقنعون حقيقيون وتم اختطافه إلى ... القصر .. وهنـــاك اطلعوه على سر مروع ... لقد قتلوا الحاكم منذ زمن بعيد ، وبما ان الشعب المسلح يلح إلحاحاً مروعاً لرؤية حاكمه وسماع صوته ، فقد جيء به ليلعب دور البديل ! ... وإذا رفض فسيقتل ..

وهكذا قَبِلَ ... والليلة ، عليه ان يطل على (شعبه) ... وان يحدثهم من الشرفة ... ويقول لهم شيئاً ما ... في البداية كتبوا له خطابا طويلاً جداً وفوجئوا في آخر لحظة بأنه لا يعرف القراءة . وأُلغي موعد إلقاء الخطاب وتم تأجيله من ليلة عيدهم القومي إلى موعد آخر ... وجرت كتابة خطاب موجز كي يستطيع نانو حفظه غيباً .. آه لتلك اللغة العربية ، كم مخارجها صعبة الالقاء وخصوصاً حرف (القاف) في كلمة (القتل) .. وكانت ترد في خطابه أكثر من مرة ! ...

بعد لحظات يساق إلى الشرفة ليلقي بعبارات حفظها كالببغاء ، ولا يعي حرفاً منها ... تراه يستطيع ؟ ... عليه ان يكف أولاً عن البكاء ، ولكنه حتى ولو لم يفعل سيظنه الشعب (مزكوماً) ...

آه لبؤسه ...

حتى ولو استطاع الهرب الآن ، فسينقض عليه الشعب ويمزقه متى رأى وجهه ..

لقد سقط نهائياً في الفخ إلا إذا أنقذه ساحر المملكة الذي استدعاه سراً ووعده بسرقة الجوهرة الكبيرة في سيف الحكم الذي يحمله موقتاً ريثما تنتهي مسرحية الليلة واعطائها له مقابل تحويله إلى سمكة ..

وحين يصير سمكة ، سيهرب إلى أعماق البحر ، وسيظل راكضاً بين الصخور حتى يخرج من البحر المتوسط بأكمله ، وحين يخرج إلى المحيط سينام قليلاً ويستريح ... ولكنه سيعود . يعرف انه لا مفر من العودة ومواجهة الأشياء بأسلوب جديد .

وتذكر بأسى ان الأسماك تنام مفتوحة العيون ، وكان بحاجة ماسة إلى إغلاق عينيه ! ... ولكنه – على أية حال – لن يغلق عينيه طويلاً . سيغلقهما قليلاً ليريحهما ، ثم سيفتحهما إلى أقصى مداهما ليرى ...

* * *

كابوس ٧٩

ها أنا اتحرك ضمن روتيني الصغير الجديد ، روتين الحرب الأهلية ... اقضي ليلي

Akhawia.net

في الطابق الأرضي ببيت العم فؤاد خوفاً من أن يطار بيتي في الطابق الثالث ... مع الفجر أصعد إلى بيتي كأن الموت لا يأتي إلا ليلاً ، والصواريخ لا تنطلق إلا في الظلام ! ... اقضي نهاري كالروح الهائمة في الدار وحيدة ... اقرأ الصحف العتيقة ... ادون مذكراتي ... استسلم للكوابيس ... أرد على هواتف الصديقات والأصدقاء ، القلقين على مصيري بصدق ، والشامتين منهم . الجأ إلى الممشى حين يشتد القصف ... استمع إلى الموجة القصيرة (الاذاعة المحرمة) حيث تتدفق حقيقة ما يدور كالنهر الاسود الجارف .. اركض إلى النافذة حين أسمع صوت استغاثة ... أهبط إلى العم فؤاد حاملة اليهم بقايا ما تبقى من أكل لدينا وباحثة عن (النشويات) المتبقية لديهم . اتصل ببعض الأصدقاء لإخراجي من هذا الجحيم ... أحاول .. أفشل .. افكر بيوسف واتعذب . أفكر بأخي واتعذب . انتظر الليل لزيارة جيراني حيوانات الدكان ... ثم أعود إلى تابوتي بالطابق الأرضي لأنام ... وهكذا ...

هذا الصباح كان يومي الخامس وانا سجينة .. ام السادس ؟ لم أعد أدري .. كل ما أدريه هو أن شيئاً لم يكسر في روتيني .. وحتى فندق « الهوليداي إن » كانت النار مشتعلة فيه هذا الفجر أيضاً ... وشجرة الياسمين ما تزال مزدهرة ، رغم ان أكوام القذائف الفارغة تحتها قد تضاعفت مختلطة ببحث بعض أزهارها البيض .. والجرذان تتمشى أمامها كل فجر كأن الخوف قد أخرجها من أوكارها ...

كالعادة ، الهاتف يستقبلني . انه المحامي . يقول إنه لا جديد . الدوائر الرسمية مقفلة وأخي سيبقى في السجن حتى إشعار آخر ! ..

هاتف آخر . أحد أصدقائي يريد (الاطمئنان) عليّ ... كان في صوته شيء من شماتة خفية أو هكذا خيل اليّ . لم أحرمه من متعته . أكّدت له أنني في أسوأ حال ، ولم أكن أكذب !

* * *

كابوس ٨٠

على الخط الفاصل بين الموت والحياة أقف ، وأشعر بسلام غامض يلف روحي ، السلام نفسه الذي يحس به المجانين ... سلام ما وراء الألم ... هذا ما أحس به حينما أجلس لأكتب ، ولأدون « كوابيس بيروت » ..

Akhawia.net

صوت الرصاص والمعركة الدائرة في الشارع يتعالى .. يصير كقرع عصي على آنية نحاسية في مدينة خرج أهلها جميعاً يقرعون بشدة كي لا يبتلع الحوت الشمس ... يصير قرعاً فوق رأسي .. اشتهي ان أرى ما يدور ... لكني لا أجرؤ على الاقتراب من أية نافذة .. انه فيلم المغامرات الوحيد الذي علي أن أسمع صوته دون ان أراه ... إن مجرد النهوض عن الأرض حيث أتمدد ، – واكتب منبطحة على بطني – والاقتراب من النافذة مغامرة رهيبة ... قرع الآنية النحاسية يكاد يمزق جمجمتي. انقطع التيار الكهربائي. انهض ألملم أوراقي . أشعل الشمعة السوداء . امضي إلى الدهليز لأعاود جلستي نفسها ، منبطحة على الأرض واتابع الكتابة على ضوء الشمعة السوداء ... هل هي مجرد صدفة ان لون الشمعة أسود ، كأن الضوء لا يولد إلا من الظلمة ، والشمس لا تشرق إلا بعد مرورها بدهاليز الألم المعتمة ... انقطاع التيار الكهربائي يعني أشياء مروعة – إذا كان نهائياً .. ولكنني ، وأصوات الرصاص تفترسني – لا استطيع احصاءها الآن ولا أدري ما اذا كنت سأبقى على قيد الحياة لأعاني منها .. أم لا ...

* * *

كابوس ٨١

المعركة ما تزال تدور ...

لا بد وان قتلى كثيرين يتمددون الآن على الأرصفة المحيطة ببيتي ... بعضهم يتعذب ولم يمت بعد ... لا سيارة اسعاف تجرؤ على الاقتراب من هذا المكان الرجيم ... سيتألمون طويلاً ، وهم على مرمى حجر مني ، وانا عاجزة عن بَلّ وجوههم بقطرة ماء أو لمسة حنان .. أشعر بالألم في أذني .. في الموضع الذي (مسحته) الرصاصة ... كلما اشتدت المعركة يعاودني ألمها ، كما لو كانت جرح المدينة لا جرحي ! ..

اتجول في غرف البيت كلها بحثاً عن أكثر غرفها هدوءاً – نسبياً طبعاً – .. كيفما تجولت تبدو الانفجارات والطلقات كما لو أنها قادمة من الغرفة التي انا فيها ...

وفجأة ، صمت كل شيء تماماً وفهمت ربما للمرة الأولى ما تعنيه عبارة « صمت المقابر » .. انه صمت عدواني خطر ، لا يشبه صمت القرى الوادعة ولا صمت باحات لعب الأطفال في المدارس الداخلية بعد رحيلهم عنها للنوم ... شعرت بخوف لا حدود له . خوف من نوع آخر ، غير ذلك الخوف الذي كنت أحسه بينما الرصاص يجلد

Akhawia.net

المدينة ... وعبر الصمت تأتيني أصوات مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة ... وفيها نبرة غضب جديدة ، مثل إيقاع طبول بدأت تتعالى في سيمفونية الحيرة والإنكسار واليأس ... تُراها مثلي ، بدأت تجوع ؟ ..

ثمة ملالة مصفحة تمر في الشارع ، واسمع صوتها بوضوح فأشير بيدي علامة (اوتوستوب) لاستوقفها ، علها تحملني من هذا الجحيم .. ومع ان النوافذ كلها محكمة الاغلاق وبيني وبينها عشرات الجدران ، لكن يدي ما تزال تشير بعلامة (اوتوستوب) .. وانفجر ضاحكة .. يخيفني صوتي .. تراها بداية الجنون ؟

ثمة صوت سيارة اسعاف ... صوت سيارة الاسعاف ... انه صوت الفراق .. صوت فراق جسد لعضو فيه .. صوت فراق إنسان لذاته .. صوتها يعلو ويخفت ويخيل إليّ أنها تحوم حول الحي عاجزة عن الاقتراب . وتتابع نواحها .. لا أدري لماذا تذكرني بصوت الزغاريد في الأعراس ، وأكثر الأعراس التي تطلق فيها الزغاريد مزيفة .. كأن الزغاريد قناع لدموع الرفض السرية .. صوت الزغردة وصوت العويل . صوتان اكرههما .. ربما لانني أكره الأصوات العالية كلها ، إلا حين تصدرها الطبيعة ، كالرعد وصوت الريح ... الأصوات العالية التي يصنعها الانسان مقترنة في ذهني باستمرار بالشر ... بالأقنعة ... بالخطابة في الجماهير ، وبالأكاذيب التاريخية الكبيرة ... الأصوات الخافتة تقترن في ذهني بالصلاة والحب والسلام .

ثمة شجار بنطلق من بيت مجاور ... الرجل يصيح بأعلى صوته ، والمرأة أيضاً ، ومع ذلك تبدو أصواتهما هزيلة وهشة بعد سيمفونية الانفجارات ، كما لو كانت فاصلاً هزلياً في مسرحية مليئة بالعنف والغضب .

اتعثر بمصباح صغير وانا اتابع دوراني على غير هدى في غرف البيت المسكون بالزلزال . انه مصباح خاص بقتل البعوض كنت أضيئه كل ليلة قبل نومي لأبعد عني غاراتها ... اتذكر أنني لم استعمله منذ زمن بعيد ... منذ صار لسع الرصاص هو الذي يتهدد نومي لا لسع البعوض .. اضيئه وأنا أضحك بصوت عال ... لا يعمل ، فالتيار الكهربائي ما زال مقطوعاً ...

مصباح قتل البعوض ، وكل الأشياء المنزلية الأليفة التي تستعمل لتأمين راحة إضافية كالساعة وكسارة اللوز وفيلتر السجائر والنظارات « وماء الزهر » وورق الكلينكس

Akhawia.net

والخف المنزلي غير الصالح للركض ومنفضة السجائر ودبابيس الشعر وغيرها من مئات الأشياء التي تزخر بها بيوتنا ، تبدو لي الآن سخيفة ومضحكة ولا ضرورة لها ... وحتى النوافذ الشاسعة أجدها الآن مجرد أماكن (خطرة) واتذكر نوافذ القلاع القديمة ، الضيقة والمحفورة في الجدران السميكة بشكل مائل ، واتمنى لو ان الذي عمّر هذا البيت فكر بتشييده على طراز قلعة صيدا أو قلعة الحصن مثلاً ، ليته بنى غرفة واحدة منه على الأقل على هذا النحو احتمي بها ... واحس بحزن عميق : من زمان كنت ارفع اصبعي باشارة (اوتوستوب) لاية أسرة في سيارة ، كي تحملني مجاناً إلى بلاد جديدة ، فقد كنت دائماً سائحة مفلسة اعشق الاكتشاف ، وافرح لان أجمل ما في الحياة من أشياء هي مجانية لا تحتاج إلى « رسم دخول » : كالشمس والبحر والليل والقمر والضحك والحرية والحب والجنس ... وكنت أحلم بان يكون بيتي خيمة على شاطىء رملي شاسع صيفاً ، وغرفة من الزجاج فوق الصخور العالية المشرفة على الأمواج العالية شتاء ... وها هي أحلامي الشفافة تتحول تحت طرقات الرصاص إلى قلاع حجرية لا يدخلها الرصاص ..

يصرخ صوت في رأسي :

ما أبشع الحرب ..

يرد صوت آخر :

بل ما أبشع الذين يجعلون من الحرب السبيل الوحيدة المتبقية للحياة .. والسبيل الوحيدة لإستعادة شاطىء الفرح حيث نبني خيام الحرية وبيوت الصفاء الزجاجية الجدران ... دون أن نخشى حجارة اولئك المحتكرين للشمس والحياة ...

* * *

كابوس ٨٢

كفاني دوراناً بين غرف البيت ، كشبح معذب حتى في قبره .. كفاني تشاغلاً عن الغرض الرئيسي من صعودي هذا الصباح إلى بيتي ، ألا وهو جمع صور يوسف ورسائله وتذكاراته وحملها مع أوراق « كوابيس بيروت » اذا حدثت معجزة وجاءت مصفحة لإخراجي من موقعي الحربي ، أنا العزلاء ! ... اتساءل مع كل حرف أخطه في « كوابيس بيروت » ، ترى هل سأنجو وتتحول هذه الكلمات إلى حروف مطبوعة ، أم سأحترق واياها تحت ركام هذا البيت، ولن يدري أحد بالصرخات التي اطلقتها وانا اعيش

Akhawia.net

كوابيسي وحيدة وهشة كدمعة يتيم ؟ ...

كفاني تشاغلاً عن أشيائه وأوراقه وأيامه ... لا مفر من مواجهة الألم الحاد الذي يسببه لي أي تماس حسي مع ذكراه ... كأن البقايا المادية لأيامنا ، تنفي عنها صفة الحلم المعزية قليلاً ، وتعيد اليها نبض الحياة والحقيقة والواقع الذي كانته ... والذي كان يمكن ان يستمر لو لم ... لو لم ... لو لم يقتله فقراء مثله ، أوهموهم بانه عدوهم لمجرد ان ما هو مكتوب في خـــانة « المذهب » ببطاقة هويته مختلف عما هو مكتوب في بطاقاتهم ... الا يقرأون عند كلمة المذهب كلمة « الفقر » المكتوبة بحروف من جمر ؟ ...

قررت : الليلة ، اذا جاءت ملالة مصفحة لإخراجي فسأحمل معي أوراقي .... وبعض أشيائه ... سأضعها في حقيبة صغيرة أعلقها بكتفي ، واذا اعترض الضابط وقال ان لا مكان للحقائب فسأقول له ان يعتبرني امرأة بدينة ... فأنا نحيلة .. وانا وحقيبتي لا نشغل حيزاً أكبر من الذي تشغله امرأة بدينة .. ولو كنت بدينة لما طلبوا مني ترك بعض أجزاء جسدي خارج الملالة ، أو اقتطاع الزيادة في لحمي لان الملالة لا تتسع لها ... وصوره ورسائله هي جزء من لحمي ، وسأحملها معي ..

ولكن ، اين اشياؤه ؟ ..

اذكر كما يذكر النائم حلماً موجعاً ، انني ليلة مصرعه عدت إلى بيتي ، وبصمت مروع لا تخفف من توتره حتى دمعة ، جمعت صورد ، ورسائله وكرة من الزجاج الشفاف طلب مني ان انظر إلى داخلها حين افتقده لأراه .. كالساحرات .. واشياؤنا الصغيرة : شمعة نصف منتهية عاشت معنا لحظات حلوة ... عود كبريت اشعلنا به لفافة الفراق ذات شجار ... غليونه الذي كان يحتفظ به باستمرار بين شفتيه قبل ان يقلع عن التدخين بسبب تكاليفه الباهظة (للجيب قبل الرئتين) .. بعض الكتب الثقافية ... موسيقاه .. وأشياء أخرى صغيرة كثيرة لا تعني شيئاً لسوانا ولكنها تحمل إليّ رائحة كوكب كنت أحيا وإياه في مداراته الخاصة المضيئة ، قبل ان تقذف بي الأيام بقسوة إلى رصيفي القديم ، وإلى موتي العادي اليومي .. أذكر انني جمعت من أشيائه ما استطعت (وكانت تحيط بي صغيرة وموجعة كالدبابيس ، وأكثر من ان تلملم) ، ومع ذلك ، حملتها واخفيتها في مكان ما ... والغريب أنني لم أعد اتذكر ذلك المكان ... كنت قد نسيته ، ولم أنسه ، كنت اعرف اين هو ، ولا استطيع التذكر ! ... إلى اين اتجهت

Akhawia.net

باشيائه ؟ .. ارى نفسي وانا أحملها بقسوة قطة قررت افتراس أطفالها ، ولكن إلى أين مضيت بها وأسلمتها لانياب النسيان تفترسها ؟ إلى اين ؟ أجل ! خرجت من غرفتي وسرت باتجاه الدهليز حيث المطبخ والسطح وغرفة المكتبة والشرفة .. إلى أين مضيت بالضبط ؟ ارى نفسي أدخل في ضبابة بيضاء كثيفة ، ولا أدري بعدها إلى أين مضيت بهـــا ..

وقررت البحث في غرفة مكتبي .

ساعة من البحث المضني وانا متوترة رعباً ، ولم أجد شيئاً . ساعة اضطررت خلالها لفتح النوافذ كلها كي يدخل ضوء النهار (لانقطاع التيار الكهربائي) وتعرضت لوابل من مطر السماء ومطر الأرض الرصاصي المحرق ، ورياح الشتاء التي بدأت تطلق صرخات الوصول إلى محطتنا الحزينة ... ساعة ، قلبت فيها أدرجي كلها ... تطايرت أوراقي ... تطايرت حواسي .. تطايرت قدرتي على التركيز ... ولم أجد شيئاً ...

ها أنا أجلس في منتصف الغرفة ، محاطة بنوافذ ثلاث وبأصوات المعارك المتجددة ، وبالشتاء الذي أطل بشراسة من النوافذ كلها ، أحدق بذهول في الجدران واتساءل : ترى أين أخفيتها ؟ وهل أحرقتها ؟ احتمال واحد منطقي قد تبقى : هو ان أكون قد أخفيتها خلف الكتب في أحد رفوف مكتبتي التي تغطي جدران الغرفة والممشى المجاور (الذي صار مخبأي الرسمي !) ...

أعاود بحثي اليائس ... ارمي بالكتب عن الرفوف إلى الأرض ، رفاً بعد الآخر ... بعد نصف ساعة تصير الغرفة أكواماً هائلة من الكتب اتعثر بها ، لكن لا أثر لأشيائه .. لم أجدها ... لم تفح منها رائحته ... لم ترتسم صورته في الكرة ... لم يعل صوته من اسطواناته ... لم تقهقه ابتسامته في صوره ... لم أجد شيئاً ... يا يوسف يا حبيبي اين ذهبت باشيائك ؟

وخلفت غرفة المكتبة كما لو ان طوفاناً قد مر بها وحمل كل ما فيها في كومة من الفوضى ثم قذف بها إلى الأرض قبل انحساره ...

ولكنني لم أنس إقفال النوافذ بإحكام ... كنت أحب كتبي كما يحب المقاتل سلاحه وأعرفها كما يعرفه ، وكانت وأوراقي الأشياء الوحيدة التي أتمنى ألا يصيبها أذى .. وحزنت من أجل الكتب ... انها كالجسد البشري إحراقها ممكن .... اي أن قتلها بالنار

Akhawia.net

وبألماء ممكن ... انها هشة ، لم تصنع لاجل ساحة الحرب ... وصحيح ان إحراق الكتب لا يستطيع إلغاء الفكر ، تماماً كما ان قتل الرجل لا يلغي الانسانية ، لكن مصرع الانسان دراما صغيرة : كمصرع مكتبة بيتية صغيرة انتقاها صاحبها كتاباً كتاباً .

كان عزائي الوحيد هو ان اللصوص لا يسرقون الكتب . وهكذا فستنجو كتبي في حال النهب ، والخطر الذي يتهددها هو فقط خطر الحريق ... وتذكرت أيام كانت الكتب تحفر على الألواح الفخارية التي لا تؤذيها النار ، او تنقش على الحجارة والصخور... لماذا صدّق الانسان أكذوبة التمدن ورضي باستخدام (المطبعة) والورق وحتى البردي ، ولم ينتظر انصرام الزمن الرديء ، وقدوم عصر تصير الحرب فيه عاراً واستعمال الأسلحة فضيحة مخجلة تستحق الغضب العام ؟ .. لماذا تطبع الكلمات على جسد الورق الهش في عصر النار والحديد ؟ ... وتمنيت لو كانت مسودات أعمالي كلها محفورة على الحجر في كهف ما ، بدلاً من ان تكون مكتوبة بالحبر على أوراق رقيقة كورق سجائر اللف ، وورق الورد ، واجنحة « فرس الشيطان » ...

ولكن ، اين دفنت أشياء يوسف ؟ .. وكيف اختفت ؟ تراها حين مات ، استحالت تدريجياً إلى رماد وطارت في عتمة الليل ، وماتت تلقائياً مع موته ، كأنها تحاول ان تقول لي : الذكريات ليست جسد رجل ، ومعايشتها أمر غير ممكن ... كمحاولة السكن مع جثة رجل كان قبل موته أثمن لدينا من حياتنا نفسها ... لكنه مات ... والموت لا يخلف غير جثة ! ... والجثة لا بد من ان تتعفن وتهترىء .. ونهرب منها عاجلاً أو آجلاً .

حين تسللت رصاصة اصطدمت بالجدار وارتدت عنه إلى كوم الكتب ، غادرت الغرفة وانا اتساءل عن سر تلك العداوة بين الرصاص والكتب ، ام انها مجرد مصادفة ؟

* * *

كابوس ٨٣

رغم بحثي عن أشياء يوسف لم أجدها ! ... تخيلتها وقد طارت في الليل عائمة كالرأس المقطوع فوق بحاره السود ، ذاهبة بعيداً عني إلى أعماق البحر ، إلى حيث ترحل أشياء العشاق بعد فراقهم ... لملمت (أوراقي) ، وكانت كلها مكتوبة على أوراق الرسائل الخاصة بالبريد الجوي ، مما مكنني من حمل أهمها وأكثرها دون مواجهة مشكلة

Akhawia.net

الوزن والحجم ! .. وهبطت إلى بيت العم فؤاد ، فوجدته وابنه امين يلملمان (فضيّات) البيت وتحفه وآنيته الثمينة ويضعانها في حقائب كبيرة .. ما أغرب هذا العالم ... لكل كنوزه . وكنوزي هي أوراقي الشفافة ، المعدة خصيصاً للتنقل . فانا لم أصدق أكذوبة الاستقرار ولذا فقد ظللت دوماً أكتب أشيائي على أوراق الرحيل ... (أوراق البريد الجوي) وملعقة واحدة فضيّة من كنوزهم توازي من حيث الوزن وصعوبة النقل نصف أوراقي .. بكل كنوزه وعالمه ..

* * *

كابوس ٨٤

تعب العم فؤاد وابنه من لملمة فضياتهما ، وايداعها في حقائب خاصة فجاءا يجلسان معي للراحة من عناء هذا العمل ، قلت مداعبة : سيشكر لكما السارقون هذا الجهد ، حين يجدون كل شيء ثمين مرتباً في حقائب جلدية ثمينة أيضاً ، لا تحتاج إلا لمن يحملها ويمضي بها ..

لم تعجبهما نكتتي فيما يبدو فقد كشّر أمين وقال : هل تعنين انه من الممكن ان نتعرض لسرقة ؟ قلت له : ولماذا لا ؟ ... وتذكرت كتبي بغصة ثم قررت ان السارق لا يمكن ان يحمل كتبي ويترك فضياتهما وثرواتهما ! ..

نهض وغاب قليلاً في إحدى الغرف الجانبية ثم عاد وبين يديه عدة علب سوداء مخملية يكسوها غبار العتق .. تبينت فيما بعد انها ليست علباً وانما (ألبومات) صور العائلة التذكارية ... فقد كانت أسرة أمين ثرية ورثت أموالها أباً عن جد ، لا كأسرتي المتوسطة الحال ، والمرحوم والدي الذي كان قاضياً نزيهاً (اي رقيق الحال) والذي أجّروه الطابق الثالث من بيتهم منذ أعوام طويلة وتمسكنا بالبقاء فيه فيما بعد لايجاره البخس بالنسبة لزمننا المرعب الغلاء ...

وبدأ أمين يقلب ألبومات الأسرة ... كانت تمثل صور بنات شخصية لبنانية كبيرة ، تزوجن كلهن من أمراء عرب ! ... وفي الصور لقطات تذكارية لأعراسهن ، وتبدو فيها زوجة العم فؤاد المتوفاة إلى جانب العرسان . فقد كانت صداقة قديمة تربط بين الاسرتين ... لم اتأمل وجوه العرائس او بقية النساء اللواتي هن بلا ريب من (سيدات المجتمع) اللواتي تحتل صورهن الصفحات الخاصة به ... وانما تأملت المجوهرات التي

Akhawia.net

تتدلى من الرقاب كجثث الطيور ، وكانت تتدلى من عنق العروس جوهرة كبيرة (ذكرتني بجثة الألباتروس في قصيدة الملاح العتيق لكولريدج) ... آه كل تلك الثروات المهدورة ... كل تلك الآرائك المخملية الأرجوانية والثراء الفاحش الذي يعلن عن نفسه حتى في أكواب الشراب المذهبة التي يحملونها بأيديهم ... أحسست بضيق غامض وانا أراها . يتأملها امين بألفة ، كأنه يهرب اليها من حاضره المظلم ... وحين عرض عليّ (الاستمتاع) بتأمل أحد الألبومات رفضت .. أحسست بان هذا الماضي (الارستقراطي) هو الذي يصنع الآن هذا الحاضر المتفجر الدامي ...

* * *

كابوس ٨٥

قال لي امين وهو يناولني الكأس الثالثة كما لو كانت كأس النسيان الأسطورية : هذه آخر زجاجة بيرة في البيت ! ...

كانت ساخنة قليلاً . تذكرت ان التيار الكهربائي قد قضى نحبه . هذا معناه فساد الأطعمة المحفوظة في البراد . والجوع . الجوع الحقيقي (**كذات ليلة في لندن ، وانا واخي قد دفعنا للجامعة آخر قرش معنا كأقساط . قررنا ان نزور حبيبته وقت العشاء فقد تطعمنا شيئاً ... واستقبلتنا بكل الحرارة البريطانية ، وسكبت لكل منا بضع قطرات من « الروم » » وحين جاءت اللحظة الفاصلة ، لحظة العشاء ، (سكبت) لنفسها قطعتين من لحم الخنزير وجزرة ونصف حبة بطاطا وجلست تلتهمها امامنا دون اي حس بالذنب او (بواجب الضيافة) الذي فطرنا عليه . وهكذا كان علينا ان نتعذب مرتين ، مرة لجوعنا ، ومرة لشبعها ...**

في صبيحة اليوم بعد التالي حدثت المعجزة على طريقة الافلام المصرية — يبدو ان هذه الامور تقع أحياناً حقاً — وجاءني عرض للعمل كمترجمة في احدى السفارات العربية ، وكانوا يتمنون عليّ ان أوافق ، وكان التمني مشفوعاً بمئة جنيه كسلفة . كان صوتي خافتاً وانا اوافق ، ظنوني اتمنع ولم يكونوا يدرون انه كان خافتاً .. لجوعي) ولكنني الآن هنا ، في بيتي الذي صار « كصحراء العلمين » أثناء الحرب ، مهددة بالموت جوعاً أو رصاصاً ، ولي الخيار ! ..

مجموعة من الانفجارات . خيل إليّ انني أسمع صوت زجاج يتحطم ممتزجاً بها ..

Akhawia.net

تخيلت واجهة فندق « الهوليداي إن » اللعين ، لا ريب في انها تحوي مساحة شاسعة من الزجاج ، ما يكفي لتغطية ملعب اولمبي كبير ، تخيلتها لوحاً كبيراً واحداً شفافاً منتصباً نحو الغيوم ، وها هو يهوي فوق حيّنا ويتكسر على قرميدنا ...

هدوء مفاجيء ...

هدنة من تلك التي لا تطول عادة أكثر من ربع ساعة ، وتحمل صمتاً هو « صمت القبور » بكل رهبته وتوتره وخطره الغامض ...

طارت ذبابة امام وجهي وحاولت ان تحط على كأس بيرتي . صوتها اكثر ارتفاعاً من صوت مدفع رشاش . كدت أجن من إصرارها على التحليق امام وجهي . كانت كبيرة وسمينة ولعلها كانت للتو تشرب من جرح انسان ما ...

... امام النافذة وقفت اتأمل القطط البرية في الحديقة وأراها بعين جديدة : هل هي سمينة ؟ وكم يوماً تكفينا اذا اضطررنا لذبحها وأكلها ؟ ما طعم لحم القطط ؟ ...

أمين يروي لي نكتة بالفرنسية .. للمرة الأولى في حياتي اسمعه يروي نكتة . زواها كما لو كانت مأساة شكسبيرية ، فشعرت بانقباض عميق وكدت أبكي للنكتة ... ناولني كراساً عتيقاً للنكت بالفرنسية ، وحين لاحظ انني ارمقه بشيء من الفتور ، نهض متابعاً حملته على الذباب اللامتناهي العدد ... وقلت له ملاطفة : « قتل الذباب جريمة ، لكن عدم قتله جريمة أكبر » ... وايضاً لم يفهم .

ونهضنا للأكل . ارتدى الطباخ جاكيتة بيضاء ذهبية الأزرار (حسب الأصول) ، وفرش المنضدة بآنية الطعام الفضية (ايضاً حسب الأصول) ، وبدأ يدور علينا بالأكل (الرمزي) الذي لا يكفي لاشباع طفل ، ولكنه مقدم (حسب الأصول) ...

رغم بؤسي وجوعي كدت لا أتمالك نفسي من الضحك ... هنالك من نومهم عميق إلى حد ان الزلزال نفسه لا يوقظهم ! .. كانت عشرات الأواني الفضية والملاعق المذهبة تلتمع على مفرش المائدة المخملي الأرجواني ولكن لم يكن فيها من الطعام ما يسد رمقنا ! ... ولكن ، المهم الأكل (حسب الأصول) وحتى الجوع (حسب الأصول) ! .

* * *

كابوس ٨٦

العم فؤاد وابنه سينامان بعد الغداء (حسب الأصول) . لا شيء يستطيع تبديل

Akhawia.net

عاداتهما ... حتى اشعار آخر على الأقل ...

أصعد إلى بيتي في الطابق الثالث . اركض عند نوافذ السلم رغم قناعتي النهائية بان الرصاص الحديث يتحرك بين الجدران ككرة البلياردو مصيباً حتى الأهداف اللامرئية لمطلق النار . عند الطابق الثاني ، ألحظ ان نباتات الجيران المزروعة في اصص فخارية مصطفة أمام مدخل بيتهم قد بدأت بالذبول ... لقد سافر جيران الطابق الأوسط منذ بدء الأحداث ، وكلفوني برعاية نباتاتهم . تذكرت انني نسيتها . شعرت بالخجل . أيّ تقصير في مجال المحافظة على الحياة ، اي حياة ، يشعرني بالالم ... سارعت إلى بيتنا لاحمل اليها الماء . شهقت الحنفية ثم انقطع الماء نهائياً .. انها كارثة جديدة علي ان أواجهها : انقطاع الماء بعد انقطاع الكهرباء ... ولكن ، هل أعيش بما فيه الكفاية لأواجهها ؟ .. وبعد ان عرضت نفسي للرصاص كي أحافظ على حياتها ، وجدتني اتأملها واتساءل والجوع ما زال يسكنني : تراها صالحة للأكل ؟ وهل سابدأ بأكلها أولاً أم بقطط الحديقة ، وبعدها بجرذان البيت ؟ ...

* * *

كابوس ٨٧

الهاتف يرن . صار مؤنساً . انه الشيء الوحيد الحي الذي ينطق حولي هذه الأيام ... وحتى قطط الحديقة ، لم أعد أسمع مواءها ... حتى الكلاب الضالة لم تعد تعوي .. كل الحيوانات أخرسها الرعب وبدت في دقائق الهدنة المرجزة وكأنها تتحرك في فيلم صامت عتيق ..

انه المحامي .

إطلاق سراح أخي غير ممكن حالياً ، لأن الدوائر الحكومية معطلة .. انها تعمل في حالات السجن وتتوقف في حالات اطلاق السراح . لم يضايقني الخبر . فرحت . يبدو ان السجن هو المكان الوحيد الآمن هذه الأيام ، وحتى صحبة (مجرميه) الصغار المساكين خير من التعرض لاعتى المجرمين الذين يسكنون هذه الأيام شوارعنا ... كأننا احفاد فرنكشتاين والمركيز دي ساد ، لا من نسل آدم ! ..

وعاودت من جديد بحثي عن أشياء يوسف ... في حال حدوث المعجزة الموعودة ، ووصول ملالة مصفحة لانقاذي ، اتمنى ان احملها معي ... لا استطيع ان أخلفها للنار

Akhawia.net

او للعبث ... عدت إلى غرفة المكتبة . جلست فوق كوم الكتب الحزينة واغمضت عيوني في محاولة فاشلة للتذكر . جئت بكرتي الرمل الأزرق – ساعتي الرملية – وجلست أمامها . كنت قد قرأت في مكان ما ان أفضل وسيلة للبحث عن شيء ما ، ليس في الركض من مكان إلى آخر والتفتيش عنه ، وانما بالجلوس في مكان معين ومحاولة تذكر أين يمكن أن يكون قد وضع ...

وجلست أحدق في انسكاب الرمل المستمر في محاولة مني للتركيز ... كان الرمل يتدفق من الكرة العليا إلى السفلى ، شفافاً لا مرئياً اثيري اللون لا يتوقف كالزمن ... وبعد دقائق بدأت أرى الرمل يتدفق من الكرة السفلى إلى العليا ، والزمن يعود ، وها هي تلك اللحظة المريرة تعود ، وها أنا أدور في البيت الملم من أشيائه ما استطعت ، واحملها بقسوة قطة قررت افتراس أطفالها ، وامضي بها ناحية الدهليز المؤدي إلى المكتبة ، ثم .. ثم أدخل في ضبابة بيضاء كثيفة ... ولا أرى بعدها إلى أين تمضي بي أمواجها ...

وقررت : انني عاجزة عن تذكر المكان الذي اخفيتها فيه . شيء ما في دماغي تعطل ساعتها . خيط ما قد انقطع ، ربما ليحميني من الجنون ! ..

* * *

كابوس ٨٨

حينما يتعانق غضب الطبيعة وغضب الانسان ، يحس الكائن الوحيد مثلي بانه ساقط في شرك مصيدة الحياة ... وان نافذة الخروج الوحيدة المتبقية في هذا السجن هي نافذة الموت المطلة على الأبدية وأفقها الغامض ...

ها هو الغروب يهجم على بيروت ، كئيباً ، تحمل الريح الغاضبة ذراته الرمادية الدامية وتنثرها في العيون ... وها هي أصوات الصواريخ والقنابل تأتيني داخل ذرات البرد القارس الذي اشتد عصفه ...

انها تمطر ... تمطر ناراً وماء ودماء .. تمطر رصاصاً وغيثاً ودمعاً .. النوافذ يعصف بها الرصاص والمطر معـــاً ... انه صقيع الشتاء المبكر وصقيع الخوف والوحـــدة .. **(يوسف كان يقول لي باستمرار : آه كم انت وحيدة . ولكن ذلك لم يكن صحيحاً في تلك اللحظات . معه لم اكن وحيدة ابداً .. لكن قوله تحقق الآن حتى نخاع عظام حروف هذه العبارة . وحيدة .) ..**

Akhawia.net

الشمعة السوداء شارفت على الانتهاء ، والتيار الكهربائي قد اغمي عليه منذ الصباح .. وذهب ولم يعد .. ذبالة الشمعة تتوهج قبل ان تنطفىء تماماً ، وتخلفني للظلمة الزاحفة مبكراً في هذا اليوم الخريفي الشتائي والبرد ، وصوت الرصاص الوحشي الانطلاق ... واسمع صوت يوسف « كم انت وحيدة » ... آه معك وحدك كان الدفء والفرح (كنا نحب الدفء ، ونحول غرفتنا في الشتاء إلى مكان استوائي حار صالح لتربية التماسيح). هذا لا يعني ان علاقتنا كانت—كعلاقة روميو وجولييت— غراماً مستمراً دونما شجار . ولكن ربما أحب كل منا الآخر بعمق أكثر من عمق حبهما ... وحين نتشاجر ، كان يحدث أمر غريب بيننا ... كان كل منا يضم صاحبه إلى صدره ، بينما نتابع شجارنا وألفاظنا الجارحة وتهمنا المتبادلة ، كما لو أننا نتلمس القرب عن طريق اللمس على الأقل ... آه يا لها من أيام (كتبت له على جبينه بالحبر كلمة : احبك . وقلت له: حتى بعد ان تغسلها ، ستظل تقرأها حين تقف امام أية مرآة . كان حبه صادقاً بطريقة لم اعرفها في حياتي أو حياة المحيطين بي او حياة ابطال الروايات وابطال قصصي ... حين وعدني بأن يقرأ كلمة « أحبك » كلما حدق بالمرآة كان صادقاً واكثر صدقاً مني انا صاحبة الفكرة ، والدليل انه تمثلها عملياً ولذا ذكرني بضرورة كتابة العبارة « بالمقلوب » .. انه لم يقل لي مرة كلمة كذب واحدة ... حتى عبارات الحب التي يغدقها علي كانت كلها غير مزيفة .. مرة همس : اطمئن اليك واحس بالسلام معك . وكنت احمل في يدي زجاجة فيتامين ، فتظاهرت بانني اقذفه بها ، لكن عينه (لم ترمش) ولم يرف له هدب ولم يحرك يده في اتجاه وجهه لحمايته من القذيفة . كان صادقاً حين قال انه يطمئن الي ..

آه شؤون صغيرة تهاجمني ... تذكرني به ... شؤون صغيرة هي الحب في جوهره ...

ولكنه لم يكن على حق في اطمئنانه إليّ .. مرة كنت غاضبة منه ، وساكتة على مضض ، اتابع نزهتنا ، وبين يدي الكاميرا التقط له صورة بعدسة خاصة مكبرة ، حين شاهدت وجهه في العدسة وانا الصقها على عيني استعداداً لتصويره ، تذكرت دون ان أدري لماذا عدسات بنادق القناصين ... صارت الكاميرا في يدي بندقية ، وصرت أتأمله من منظارها الخاص بالقنص ... وقررت ان لحظة الضغط على الزر لإلتقاط الصورة ستكون لحظة الضغط على الزناد لإطلاق الرصاص عليه ... كنت أصوبها

Akhawia.net

عليه ... كنت أصوبها نحو رأسه (اي كنت التقط له صورة بورتريه !) .

وأحسست انني لست غاضبة بمقدار يكفي لأطلق الرصاص على رأسه ،وانما على قدميه فقط ... وغيرت الهدف وشددت الزناد ... ضحك كثيراً يوم تم تحميض الصور واكتشف انني صورت قدميه ، ولم اعترف له بأنني كدت أغتاله يومها ، ثم اكتفيت باطلاق الرصاص على رجله تشفياً !)

آه شؤوننا الصغيرة تهاجمني ... شؤون صغيرة هي الحب في جوهره ...

ولكنها لم تكن دوماً شؤوناً صغيرة ، على الأقل في نظر الآخرين ..

(غاظتنا صعوبة الاتصالات الهاتفية في بيروت كلما امطرت السماء في وجه شوقنا ، فقررنا شراء جهاز (توكي ووكي) .. واوصينا أحد اصدقائنا بحمل الجهاز معه من سفرته الأخيرة ... وحين صودر منه في الجمارك بصفته جهازاً يحرم استعماله للمدنيين قال انه بريء وان استعمال الجهاز محرم على المدنيين ولكن ليس على العاشقين . لم تعجب الضابط هذه النكتة ، ولم يبد عليه انه يصدق حكاية حبنا ، بل انه كان ميالاً إلى اتهامنا بالعمل في منظمة (هدامة) شيوعية طبعاً لمجرد اننا فقراء ، وبدا خائفاً منا وغاضباً في الوقت ذاته ..

في زمن البغضاء من الصعب ان تقنع الناس بانك عاشق .. في زمن الكراهية يصير استعمال الآلات الحديثة مكرساً لاجهزة القمع والقتل) ...

كل أجهزة اللاسلكي التي تبث في هذه اللحظة أوامر القتل والتدمير ، لماذا لا تمنح موجاتها ليبث منها العشاق ؟ ولماذا لا يوضع شرط أساسي للحكام ، هو ان يكونوا عشاقاً .. العاشق انسان غير مؤذ ، وهو وحده القادر على فهم معنى المحبة والحنان والمساواة والفرح والشمس والطفولة وكل العبارات التي يتشدق بها حكامنا العاجزون فكرياً وجنسياً ... إنه لن يقتل دونما مبرر ، وسيكون مقاتلاً لا قاتلاً ...

* * *

كابوس ٨٩

رغم العاصفة ، استطيع ان أسمع أصوات كائنات دكان بائع الحيوانات الأليفة .. في أنينها الحائر الخائف ، نبرة غضب جديدة ... كغضبي لجوعي ... تراها بدأت تجوع مثلي ؟ ...

Akhawia.net

ارتدي معطفاً واقياً من المطر ثم أخلعه حين اتذكر انه غير واق من الرصاص .. واهبط درجات السلم ، والعتمة نور يؤذن لي كل مساء بزيارتها ..

ها أنا في الحديقة المعتمة من جديد ... أحاول استنشاق الهواء النقي كما يفعل المساجين في لحظات خروجهم الوجيزة إلى باحة السجن ، لكن هواء الليل لم يعد نقياً ، والريح تحمل معها رائحة جثث بدأت تتعفن ، لعلها جثتا الرجل والكلب اللذين قتلهما القناص أو الجثث الأخرى الكثيرة الممددة في الشوارع المحيطة بي أو في غرف الفنادق التي يدور القتال فيما بين الذين احتلوها .. تأتيني رائحة الموت الكريهة ممزوجة بدخان حريق هائل شب في المبنى الكبير المقابل ، مبنى فندق « الهوليداي إن » ... الظلمة ليست دامسة ، وألسنة النار العالية تكاد تحيل ظلمة الحي إلى غروب ناري لا ينتهي .. كأن الشمس توقفت لصق أفق البحر ، لصق أفق الغابات وبدأت تحرق الأشجار وتبخر الأمواج ... توقف المطر قليلاً لكن الرصاص ما يزال يهطل ... البرق يلتمع من شعري المرسل على ساق الليل في توسل لامتناه ، والرعد يتابع تهديداته الغاضبة ...

واحس بأنني صغيرة ووحيدة كفراشة ضالة في قارة الغربة ... اركض والتصق بصدر النخلة السامقة الطول ، ثم اتابع ركضي نحو نافذة المخزن ... النافذة كما تركتها البارحة ، نصف مخلخلة .. انتزعها من مكانها كالعادة .. تهب الريح ضارية إلى الداخل .. ويتعالى صراخ الحيوانات وحوارها وهي تشم رائحة الدخان والحريق ، ورائحة الشتاء والمطر ...

اقفز إلى الداخل ... الرائحة الكريهة تهاجمني ... رغم البرد ، الرائحة نفاذة أكثر من العادة ... أجلس قليلاً على الأرض ريثما تألف عيناي الظلمة ثم احدق بما حولي ... الأقفاص مغلقة كما تركتها البارحة ، ولكنها فارغة تماماً من الأكل الزهيد والماء ... من الواضح ان صاحب الدكان او من ينوب عنه ، لم يستطع الوصول اليوم اليها ... ان اللعبة بدأت تخرج من يده ولم يعد بوسعه أن يتحكم في جعل الطريق آمنة متى شاء ... وهو لم يحمل اليها بالتالي (راتبها) اليومي البسيط الذي يمنعها من الموت (وليس من المرض) كي يظل قادراً على بيعها والإتجار بها ...

انه الجوع ... له رائحته الخاصة ... له حضوره الخاص ... اعرفه جيداً كما تعرفه هي .. واميزه من رائحته ومن صوته ... انه صوت يتجمع في الحنجرة ، يبدأ متذمراً

Akhawia.net

ثم يستحيل إلى أنياب إضافية في فم الجائع ...

في البداية قررت أن أركض لاحضار طعام لها . كان ذلك رد فعلي العفوي ثم تذكرت انه لم يبق من الطعام ما يسد رمقي لأكثر من يوم ، فاقنعت نفسي عقلياً بان عليّ ان أتركها تجوع بما فيه الكفاية لتستيقظ غريزة الحياة فيها وتغادر أقفاصها إلى الصيد من أجل البقاء ... ثم فكرت : ربما كان عدم هربها لحكمة لا أعيها .. تذكرت الكلب الذي قتله القناص منذ يومين . ربما كانت تلزم أقفاصها بفعل أصوات الرصاص كأنها تعي أن الخروج الآن يعني الموت ... لعلها لا ترفض الخروج كمبدأ ، لكنها ترفض « التوقيت » ... ولكن ، من أين لها ان تعلم بوجود القناص ، ربما كانت تحس إحساساً غامضاً بان الخارج ليس آمناً ، وعلى أية حال لن أعرف أبداً ما يجول في رؤوسها بالضبط . كانت الكلاب أكثر الجميع جوعاً أو أكثرها تعبيراً عن ذلك ... قررت : سأفتح أقفاصها وأرى ما إذا كانت ستهرب أم لا ... وانا أرفع مزلاج بابها ، وكان القفص يضم خمسة كلاب كبيرة ، شاهدتها تقترب مني وتحوم حولي وتعوي بغضب جائع مفترس .. وخشيت ان تهاجمني اذا أطلقت سراحها ، وتأكدت مخاوفي حين ضربني أكبرها بيده ، فدخلت أظافره المدببة في لحمي كالسكاكين وخلفت في يدي أربعة شقوق كآثار المحراث في التربة وتركت المزلاج وهربت متسلقة نافذة المخزن .. حينئذ فقط تذكرت أنني لم أعد إقفال المزلاج ... صحيح انني لم أفتح لها الباب لكنها ستكتشف إمكانية ذلك عاجلاً أو آجلاً ... ولكن ذلك لا يهددني ما دمت قادرة على إحكام إقفال نافذة المخزن ، وبالتالي سجنها في الداخل ...

كنت ارتجف خوفاً وانا أحكم إعادة إطار نافذة المخزن إلى موضعه .. بل انني دحرجت حجراً كبيراً اسندته على المنخل الحديدي للنافذة ... وكان جرح يدي يؤلمني بإلحاح متزايد ...

وفي ضوء الشارع الشبحي ، كنت ارى عبر الثقوب الدقيقة لمنخل النافذة ، باب قفص الكلاب يفتح ، والكلب الأول يخرج ، غاضباً مزمجراً كالريح وفي صوته نبرة جديدة ، مخيفة وجميلة ، كلوحة مرسومة بالدم ... كانت له حركات انسان خرج على الناس شاهراً سيفه لانه لم يجد في القفص قوتاً لابنائه ...

ودوت الانفجارات ، وانكسر ضوء الشارع ، وغرق المخزن في ظلام دامس ...

Akhawia.net

لكنني كنت اسمع أصوات الكلاب وهم يخرجون من القفص واحداً بعد الآخر ... وحين التمع البرق ، شاهدتهم في ايماضته السريعة وقد خرجوا يتجولون في الدكان كخمسة عمالقة غاضبين ...

تدفق المطر ، وشعرت بالبرد حتى قاع عظامي ، وفكرت بهلع ، ها أنا اتسبب في مجزرة ... فقد تهاجم الكلاب بقية الجياع في الدكان ... وتأكلها .

.. إذن ... عليّ إحضار الطعام لها ...

وركضت إلى البيت وانا أعرف انه لم يتبق فيه ما يسد رمقنا ... وانني عاجزة عن إطعام الكلاب ، وعاجزة عن إعادتها إلى سجنها ! ..

* * *

كابوس ٩٠

الضوء الأحمر لحريق الفندق العملاق المواجه لنا ينعكس من نوافذ السلم .. لكنه ضوء من النوع المخيف أكثر مما يخيف الظلام . دخلت إلى أول باب صادفني : باب العم فؤاد ...

كان وابنه يستمعان إلى إحدى الاذاعات وقد رفعا صوت المذياع حتى اقصى مداه .. ركضت نحو الهاتف وجدته بين الموت والحياة . انتظرت حوالي نصف الساعة قبل ان أنجح في إجراء مخابرة ، اتصلت بالصديقة يمن زوجة المذيع شريف المقيم ليلاً ونهاراً في غرفة العمليات بلجنة الارتباط العسكرية ... قلت لها انني في خطر ، لا لأن القصف قد اشتد عما كان عليه في الأيام السابقة (إذ لم يكن بوسعه ان يكون أكثر شدة إلا إذا رموا بالقنبلة الذرية مثلاً !) ولكن لان اعصابي بدأت تهترىء وتستحيل إلى خيوط متآكلة كشبكة صياد عجوز ... وهنالك شبح الجوع أيضاً .

اتصلت بأمل وهدى وبلقيس وبكل من خطر ببالي من صديقاتي الحميمات ... ولم اتصل بفاطمة فقد كنت أعرف انها تقاسي ما اقاسي وبيتها في رأس النبع جبهة ملتهبة كجبهتنا ... كنت تماماً مثل سفينة مشرفة على الغرق تطلق صرخة استغاثتها الأخيرة في الاتجاهات كلها ... وكان عليّ ان أصبر أكثر من نصف ساعة قبل كل مخابرة .

وانقضت عصور قبل ان يرن جرس الهاتف ، جاءني صوت يقول ان النقيب أيوبي ، يطلب مني وصف موقع البيت لتحضر ملالة لانقاذي ... حين سمع الوصف قال لي :

Akhawia.net

المكان خطر جداً لكننا سنحاول .. وفهمت من لهجته ان عبارة « سنحاول » هي المرادف اللطيف لعبارة « مستحيل » ولكنه اشفق من قول الثانية ... بدأت استميت في إقناعه .. قلت له انني سانتظرهم في الشارع الجانبي خلف بيتنا ، اي شارع الحوراني ، أمام دكان بائع الحيوانات الأليفة . قال لي ان المصفحة لا تستطيع المرور بذلك الشارع لضيقه وشدة انحداره وخطورة انزلاقها في المطر ، وان مصفحة كادت (تعلق) البارحة فيه ، وصدقته ، فقد كنت قد سمعت ليلاً وانا بين النوم واليقظة صوت مصفحة تروح وتجيء لكن ظننتني واهمة ، كالظمآن في الصحراء يرى السراب ، أو كالعاشقة يأتيها شبح حبيبها ، وكان من الطبيعي في مثل هذم الظروف ان لا أحلم بغير المصفحات ... إذن لم يكن حلماً . كانت هنالك مصفحة متورطة تناضل لتخرج من درب الانحدار والمطر . لم ايأس . قلت له ان بوسعي انتظار الملالة في الشارع المنحدر من كليمنصو إلى مخفر ميناء الحصن (كنا نسميه — يوسف وانا — شارع التنهدات .. وحين كان يوصلني إلى بيتي مروراً بهذا الشارع ، كنا نبدأ بتنهدات عاشقة لاننا سنفترق .. وسيطول غيابنا لمدة ساعة مثلاً !) ، ولم أقل للنقيب أيوبي « شارع التنهدات » وإنما قلت له : شارع المخفر .. سأنتظركم أمام المخفر ...

رد بضيق : انه مكان يستحيل الوصول اليه ، فقد عجزنا حتى عن ايصال الخبز لرجالنا فيه ! ... تمتمت محاولة قول أي شيء كي لا نختم المحادثة هكذا وينقطع شريط الأمل نهائياً مع انقطاعها : هل تريد ان أحمل بعض الخبز إلى رجالك في المخفر ؟ استطيع التسلل من الحديقة الخلفية في الظلام ... (لم اكن أعني ما اقوله طبعاً إذ لم يكن لدينا كسرة خبز إضافية واحدة) وكأنه فهم فقال : خذي هذا الرقم ، واتصلي بالمعاون أول حيدر الذي سيقود الملالة فقد تجدان دربا تستطيعان الوصول اليها او تتفقان على مكان اللقاء .... وانتهت المكالمة ... وسادت الظلمة الدامسة قلبي .. ورغم انني سجلت الرقم إلا انني لم اتصل بالمعاون الأول حيدر ، فقد كنت أعرف سلفاً أنه سيرفض المجيء إلى قلب ساحة حرب الفنادق ! ... ثم ان الهاتف كان قد قضى نحبه تقريباً .

شعرت بصدري ممزقاً ، وأحسست المساء ثقيلاً يجرجر نفسه فوق جسدي وكأنه (مدحلة) تعبيد الطرقات وقد مرت للتو فوقي جيئة وذهاباً ، ظللت مرمية في مكاني ، على الكرسي الملاصق للهاتف ... الشمعة إلى جانبي ترتجف في الريح الباردة القادمة من

Akhawia.net

النوافذ .. لم نكن نجرؤ على إغلاق النوافذ خوفاً من تناثر الزجاج في الانفجارات ، وها هو « السيد الشتاء » يتجول ويدخل البيوت ...

استطيع ان أسمع زعيق مذياع العم فؤاد وابنه ، لكنني لا أبذل اي جهد لفهم ما يقال ... صرت قانعة بأن نشرة الأخبار الوحيدة الصادقة هي ما يحمله إليّ صوت الريح .. وكان صوت الريح لا يحمل غير زعيق الدمار ، ورائحته الشتائية الحزينة ممزوجة بالدخان وعفن جثث الموتى المفروشة على الأرصفة ...

* * *

كابوس ٩١

انه الهاتف . يبدو انه ما زال بوسعنا ان نتلقى المخابرات لكننا عاجزون عن إجرائها .. صوت جارنا حسين الذي يسكن بناية ادريس المقابلة لقصر آل جنبلاط و (طلعة جنبلاط) يسألني : هل أنت جاهزة للخروج؟

— طبعاً جاهزة . من لا يرغب في الهرب من هذا الجحيم ؟ .. قال : ستأتي مصفحة بعد قليل . انتظرينا عند الباب ..

* * *

إذن لم يهرب البارحة أحد . والمصفحة أصيبت دون أن تنقذ أحداً .

من جديد خرجت إلى الليل المرعب . من جديد جلست ملتصقة بالعمود البارد استرق السمع لصوت قدوم طوق النجاة الحديدي الضخم المسمى مصفحة . من جديد شتمت مذياع العم فؤاد المرتفع الصوت الذي يشوش طاقتي على الإنصات . بدأت تمطر ، وشعرت بألم مرير في يدي ثم تذكرت ان الكلب الجائع كان قد ضربني بأظافره الغاضبة . في البلدان السعيدة يذهب الناس للطبيب للتزود بلقاح ضد « مرض الكلب » حين يحدث ذلك لهم . هنا نسيت حتى ان أغسل جرحي . هنا ، في وسط ليل الموت ، يمكن ان تصيبني رصاصة وأظل أنزف حتى أموت دون أن تمتد يد لرفعي عن الأرض ! ... عالجت قفل باب الحديقة الحديدي وانتزعت عنه السلسلة المحيطة به ، وكان صوت الحديد بارداً وكئيباً يذكر بانتزاع السلاسل عن سيقان المساجين في باخرة تغرق ... وأخيراً يأتي صوتها ... من بعيد أميزه ... صوت المصفحة صار عندي صوت الحياة والهرب .. تقترب .. تقترب .. يتوقف هديرها .. أمد رأسي قليلاً ، وأحاول أن أراها عند نهاية

Akhawia.net

الشارع ... لا أرى شيئاً . مصابيح الطريق مطفأة أو مصابة بالرصاص ، وضوء الحريق الأحمر القادم من « الهوليداي‌إن » لا يستطيع خرق حجب الظلام في المنعطف حيث قصر جنبلاط وعمارة ادريس .

اغمض عيني وأحاول عبر حاسة السمع تخيل ما يدور . أراهم يهبطون من بيوتهم فرحين بالنجاة ، يدخلون إلى رحمها المعدني ويتنهدون بارتياح ، هذا بينما ما زلت أنا في بطن الحوت الذي ابتلعني : حوت الخوف والوحشة .. من جديد اسمع صوت المصفحة ، هديرها يقترب قليلاً . مطر الرصاص القادم من ناحية فندق « الهوليداي‌إن » يشتد ويمازجه رعد جهنمي أرضي ، رعد القنابل ... ولا أعود أسمع شيئاً ... بعدها بقليل يصمت كل شيء ، وأعرف ان المصفحة قد انسحبت ، ولكنني انتظر وانتظر أملاً مني في أن يعودوا لانقاذي ... لا أدري كم طال انتظاري ، لكنني أحسست بالمطر يخترقني حتى الجلد ، ويسيل من شعري على وجهي مختلطاً بدموعي ... وكان الألم في اذني ويدي قد صار مريراً ... فانسحبت بدوري راجعة إلى بيت العم فؤاد ... كنت أكثر تعباً وأعجز عن أن أعيد إقفال الباب الحديدي بالسلسلة .. ولماذا أقفل الباب ؟ ومن يجرؤ على الوصول إلى هنا ، إذا كانت المصفحة نفسها قد لملمت جسدها الحديدي هاربة من هذا الجحيم ؟ .

حين دخلت التفت إلي العم فؤاد وابنه امين وحدقا بي ، فأدركت كم انا مبتلة ومزرقة اللون ، ومرتجفة كشبح خارج للتو من قعره في قاع البحر ... ثم تابعا الانصات، إلى نشرة الأخبار ... وخيل إلي انني أرى في عيني امين ظل شماتة .. انه مستسلم لارادة والده، وها هي الأيام تثبت له — حتى الآن على الأقل — انه على حق وها هو جاف ومستريح في مقعده بينما انحطم انا كل ليلة على سلالم الأمل الدامسة السوداء ... ومع ذلك اتابع محاولة الصعود ! ...

* * *

كابوس ٩٢

واعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

وأشهد كيف يخفق القلب الأعزل بالرعب والأسى ، حين يكون مرمياً مثلي على أرصفة النار ...

Akhawia.net

ولكن ، ألم أقض عشر سنوات من عمري أكتب وأنادي الثورة ؟ ألم أقض خمس سنوات من عمري موظفة في إحدى دور النشر أساهم في إعداد الكتب « الثورية » للطبع وأعمل على تصحيحها ، أكان ذلك خطأً أم ان الخطأ الحقيقي هو في موقعي الجغرافي الخاطىء ؟ في انني أقطن حياً لا انتمي إليه ؟ في أنني أسكن بيتاً لا معسكراً ؟ .. الكتاب أمثالي الذين يحرضون البركان على الانفجار ، كيف يبنون بيوتهم على سفحه ؟ القلم المقاتل يجب ان يقطن معسكراً ؟

وأعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

واشهد كيف يدمى القلب الأعزل حين تصرخ داخله عشرات الأصوات ويخطو عبر عتبة الهواجس .. هذا يوم آخر يسعدني ان أنفيه ، ويوجعني انه لن يتكرر ... لقد انزلق رمل الساعات المقررة لي في هذا اليوم ، ولن تعود ذرة رمل واحدة منه ... ليتكرر انزلاقها .

واعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

انها الثامنة والنصف ... والكهرباء ما زالت ميتة داخل اسلاكها الباردة او المقطوعة نهائياً ... هذا معناه انني لن اتمكن من التقاط تلفزيون اسرائيل الليلة ... المفجع انني مضطرة لمراقبة تلفزيون اسرائيل لمعرفة ما يدور عندنا ... العدو يعرض شريطاً مصوراً مفصلاً عن أحداثنا الدامية ، القصد منه طبعاً التشفي والشماتة ، ولكن المروع هو اننا مضطرون لاستقاء المعلومات عن انفسنا من الاذاعات العدوة ، لان تلفزيوننا الكريم يقدم لنا كل شيء إلا ما نريد حقاً معرفته .. وقد سئمنا من سماع أخبار استقبالات (أبانا) الذي فوق قمة الهرم ! ...

واعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

واشهد كيف يدمى القلب الأعزل ، البعيد عن مناخه الحقيقي كسمكة اخرجوها من مياهها الاقليمية ...

حروفي اليوم والحروف التي اعددتها للطبع خرجت من الكتب وتحولت إلى مقاتلين .. كان من المفروض ان أكون معهم لاحس بالطمأنينة ، والقدرة على الحوار ، والقدرة على الموت الجميل ، الموت (عن سابق تصميم وتصور) لا الموت الغبي بالصدفة ودونما معنى ... ولكن ، كيف أكون معهم وانا اكتب عن الجرح الذي ينبت منه الفرح ،

Akhawia.net

والألم الذي هو مخاض الشمس الآتية ، لكنني في الوقت نفسه أصاب بالاغماء أمام مشهد الدم ، اي دم ، وبالحسرة أمام القتيل ، اي قتيل ؟! ... وأؤمن بأن الموت جريمة كونية في حق الوجود ، وان اسلحة الدمار بشاعة مرحلية يجب ان تنتهي عن كوكبنا يوم ينتهي من عصره الحجري الثاني : عصر الفضاء ، ليدخل في عصر العدالة ومعرفة الله والحق ...

وأعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

واشهد انه لو كان يوسف إلى جانبي ، لكان الحوار ممكناً ، والخروج من قاع زجاجة الحزن طموحاً غير مبالغ فيه ... أما الآن ، فكل ما أملكه هو ان اكتب فقط ... ان أتابع تسطير مسودات « كوابيس بيروت » ..

ضوء الشمعة ذابل ... الجرح في يدي يؤلمني كلما حاولت ان أخط سطراً .. مرهقة .. أشعر بابطال الرواية – الحقيقيين منهم والذين رسمهم خيالي – ينزلقون مني في العتمة ... وأصواتهم تخفت وهم يمعنون انزلاقاً في بئر عميقة سوداء لامتناهية القاع ... أفكاري تهرب مني مثل قطار سريع وأنا متعبة لا أقوى على اللحاق به ويدي تؤلمني وأعجز عن التعلق به وتسلقه وامتلاكه من جديد ...

وأعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ..

وأشهد كيف يتحول الجسد الحي إلى كومة من الأعصاب النازفة المرئية على سرير بارد في الظلام ، بينما تزدهر نبتة الكوابيس الوحشية وتنمو وتخرج من الاذنين والعينين والأنف والفم كما تنمو الديدان والطحالب على فوهات الجماجم والهياكل نصف المتآكلة في المقابر ...

لم أنم جيداً منذ عصور .. طموحي الوحيد نوم بلا أحلام ولا كوابيس ..

* * *

كابوس ٩٣

ظهر المذيع على شاشة التلفزيون وبدأ يقرأ نشرة الأخبار . كان يرتدي ابتسامة منشاة وثياباً كثياب رجال المافيا ويضع على رأسه قناعاً أسود ، ولا يظهر من وجهه غير ابتسامة وثقبين في موضع العينين يطلقان أشعة شريرة ...

كنت جالسة على أرض الكهف – الملجأ ، وحولي مئات من الحفاة المتعبين أمثالي ... والتلفزيون موضوع فوق صخرة عالية تشبه المذبح الوثني . كان المذيع ما يزال يتحدث

Akhawia.net

وقد وضع أمامه على الطاولة مدفعاً رشاشاً ، وكان يحيط به خمسة من المذيعين الذين يشاركونه قراءة الأخبار ، وكانوا جميعاً مقنعين مثله ، ويحملون أوراق النشرة بيد ، ويدهم الأخرى على زناد المدفع الرشاش . إلى جانبي طفل بدأ يصرخ باكياً جائعاً . كانت أمه عبثاً تدفع إلى فمه بثدي ذابل أفرغه الجوع من الحليب ولم يخلف فيه إلا سائلاً من المرارة الصفراء ... تضايق مذيع التلفزيون من بكاء الطفل . صرخ به ينتهره من داخل شاشته . لم يسكت الطفل . اطلق المذيع عليه رصاصة اصابته في الحنجرة تماماً فسكت ! ...

تابع المذيع ثرثرته : مولانا الذي فوق قمة الهرم يبلغكم وصول أكياس الجواهر والياقوت على متن سفننا الخالدة ...

لم يصفق أحد للنبأ . لم يبتهج أحد . كانوا يعرفون ما تحمله السفن التي ترسو هذه الأيام .

تابع المذيع : الحالة هادئة في هذا البلد السعيد ذي العمر المديد والطقس الرغيد ....

تثاءب عجوز وراح في سبات عميق على صرته التي كانت تضم دجاجة يعتاش من بيضها . صرخت الدجاجة . صفر شاب وأشار إلى التلفزيون مهدداً بقبضته بينما تابع مذيع آخر النشرة : اقيمت احتفالات بمناسبة عيد التتويج ، سنعرض عليكم أجزاء منها والمطلوب منكم ان تقفوا خشوعاً للمشهد . لم يقف أحد ... كانوا جياعاً ومتعبين وجرحى ، وكان الألم في يدي قد صار حاداً وأذني تنزف وخيل إليّ ان المذيع يصوب مدفعه نحوي فحاولت النهوض واكتشفت ان ساقي خشبية ... ولم يجرؤ أحد على الخروج من الكهف إلى الليل النقي فقد كنا نعرف ان القناصين يترصدون أبواب الكهوف .. « قفوا فوراً » ، صاح المذيع . صرخ شاب : اغلقوا التلفزيون سئمنا هذه الأكاذيب والهذر والطقوس . نريد ان ننام . تقدم من الشاشة صبي ربيعي في الرابعة عشرة من عمره كان مولوداً في نيسان ، ومد أصابعه البريئة ليضغط زر التلفزيون ويخرسه . فجأة بدأ المذيعون باطلاق الرصاص . نهضوا وقوفاً وبدأوا يطلقون نيران مدافعهم الرشاشة على الجميع ...

وانا أتلاشى ، شاهدت الصبي الربيعي المولود في نيسان يضغط زر النهاية في التلفزيون وشاهدت انفجاراً مضيئاً،وحريقاً عظيماً اشرقت من بعده شمس حمراء.... وانا أتلاشى

Akhawia.net

كنت ارى – وانا مغمضة العينين – المذيعين يطلقون النار في الوقت نفسه من شاشاتهم كلها على جميع الناس في البيوت كلها .. وفي كل بيت كان هناك صبي نيساني يفلح في تفجير مندوب (أبانا الذي فوق الهرم) ...

* * *

كابوس ٩٤

وصل السائح المغترب إلى الفندق الفخم المطل على البحر ... كان قد غاب زمناً طويلاً . يوم سافر حفظوه في مدرسة القرية انه من سلالة المردة ، وان مرقد عنزة جدّه مكان فريد وتحت روثها توجد أحجار الاشعاع مطمورة كالكنز ... ولكنه كان صبياً فقيراً ، وكلما حاول ان يسأل استاذ مدرسة الايتام عن سر افتقاره إلى الخبز ذكّره الاستاذ بانه من سلالة المردة والمردة لا يجوعون ...

ولكن للمعدة منطقاً آخر ... وذهب ذات ليلة إلى مرقد عنزة جدّه ، وحفر تحت روثها فلم يجد غير مزيد من الروث ... وهاجر ... وشقي ... واغترب ... واعوج لسانه ونطقه ... ولكنه ظل يحلم بحجر الاشعاع المسحور ، وباجداده المردة ...

وحينما زارتهم الفرقة اللبنانية الفولكلورية في دار الاغتراب نسي كم من النقود ابترت منه راقصتها الأولى « تفاحة » ومطربها الأول ... لقد غنوا له عن بلاده ، بلاد المجد ، والنجوم التي هي غبار مقالعها ، والشموس التي تنبت في كرومها ، فيقطفونها ويرشقون بعضها في السماء ، ويعصرون البعض الآخر ويعبئونه في زجاجات ويشربون رحيقه فيحلقون في مدارات النجوم راكبين مراكب شمسية عتيقة ... مطلين على الكرة الأرضية من علٍ ، ضاحكين من صغر رقعة العالم العربي وكل عوالم الشعوب الأخرى ... أما الراقصة فقد أغرته باللحاق بها إلى لبنان لقضاء فترة الأعياد على الأقل هناك ، حدثته عن الكبة النية والتبولة والعرق وجعيتا والأرز وبعلبك وكل تلك الأشياء والأماكن (الخالدة) ، ووعدته بان تكون دليله اليها ، وقبضت الدفعة الأولى مقدماً .

وصل إلى الفندق الفخم مع الخيوط الأولى للفجر وقد قرر قضاء شهر الأعياد بلبنان .. لاحظ ان بعض أقسام البناء يغطيه الهباب الأسود ، بعض النوافذ تتدلى محروقة ، أكثر الزجاج يبدو محطماً ، والمدخل الرخامي مكسر الدرجات ، فقدر ان هذا لا بد وان يكون آخر ما توصل اليه فن الديكور الحديث ، اليست بيروت أول من يحتضن كل تجديد

Akhawia.net

في العالم ؟ لم يركض أحد لاستقباله ، وادهشه ذلك ، خصوصاً بعد الاستقبال الهائل الذي حظي به في طريقه من المطار إلى الفندق ... فقد كان الناس طوال الطريق يطلقون الرصاص ابتهاجاً بوصوله ... وخيل إليه في لحظة ما ان رصاصة اصابته في رأسه إلا أنه تأكد من انه كان واهماً . ولم ير مخلوقاً في الشارع من المرحبين به ، فقط سمع اطلاق الرصاص وسره ذلك جداً . صحيح انه كان يتمنى ان يرى وجوههم على جانبي الطريق يلوحون له بالاعلام كما وعدته الراقصة تفاحة ، إلا أنه قد وصل في الرابعة صباحاً ، ولا ريب في أنهم كانوا قد ضبطوا ساعاتهم على موعد وصوله كي يطلقوا النار من النوافذ ابتهاجاً وهم في أسرّتهم .. كم هو عظيم ومضياف هذ الشعب ! ...

لم يتقدم منه أحد . قرر ان المستخدمين قد يكونون الآن في إجازة فترة الأعياد ، أو أنه ضل الطريق . قرأ لافتة الفندق فوجدها صحيحة : فندق لبنان .. كان هنالك تبديل بسيط في ترتيب الكلمات ، فقد انزلقت حروف الكلمة الثانية وبدا له اسم المكان : لبنان الفندق .

تقدم منه كيس من الرمل كان واقفاً في متراس وقال له ضاحكاً : « ولكم تو ليبانون » وضحكت بقية الأكياس . الأكياس تمشي وتتكلم ؟ يا للعبقرية السياحية .. ولكن ذلك غير معقول .. ربما كان ما يزال ثملاً . لقد شرب كثيراً من كؤوس الويسكي في الطائرة . كانت مجانية ، لذا ظل ينادي المضيفة كي تأتيه بكأس جديدة ، فقد ركب في المقاعد المخصصة للدرجة الأولى ودفع ثمناً باهظاً لذلك لانه كان يريد ان تراه « تفاحة » حين تأتي لاستقباله هابطاً من باب الدرجة الأولى وان يلوح لها من نوافذ الدرجة الأولى ... لماذا لم تأت لاستقباله ؟

تقدم منه كيس آخر من الرمل بخطى سريعة ، وقال له : هيا بسرعة دعني ارشدك إلى غرفتك لاعود إلى مكاني ، الشباب بحاجة إليّ ....

صعد خلفه متعباً . حاول ان يحمل حقائبه المليئة بالثياب الفخمة وقال له الكيس : لن تحتاج اليها هنا ...

صعد خلفه ... كان الفندق خاوياً إلا من بعض الجثث بعيونها المفتوحة التي تحدق به . كان قد حجز غرفة في الطابق العاشر كي يستمتع بمنظر البحر ، ولم يكن يدري ان غرفة المصعد منسوفة وعليه ان يتسلق حبلاً إلى الأعلى . تسلقه وقد تقدمه كيس الرمل . أدخله

Akhawia.net

إلى غرفته . كان الفراش تابوتاً . فتح الحنفية ليغسل وجهه عله يصحو ففوجيء بالدم يندفق من الحنفيات بدلاً من الماء . نظر إلى وجهه في المرآة ، ففوجيء برجل في داخلها يصرخ به آمراً : نم فوراً ، وحين تصحو ستقوم بجولتك السياحية ... إلى أمكنة أخرى في الوطن ...

لا يدري اذا كان قد نام ام لا . لم يجرؤ على النوم داخل التابوت ، فتمدد على الأرض إلى جانب الطاولة التي كانت معدنية وخاصة بالعمليات الجراحية .

ايقظه مخلوق له جسد طائر ورأس رجل فقال له السائح بخوف : جود مورننغ . بونجور . رد الشاب : صباح الخير .

طلب طعاماً ، فجاءه الشاب بكوم من العشب ، فأكل حتى شبع . طلب أن يحلق ذقنه ، فمد الشاب أحد مخالبه إلى خد الرجل وكان حاداً كالشفرة وازال به شعر ذقنه في لمحة بصر .

طلب سيارة للذهاب إلى هياكل بعلبك ، فطلب منه الشاب — الطائر ان يغمض عينيه كي يرى جيداً ... وحمله وطار به ... ذهب به إلى أماكن كثيرة لم يكن قد سمع بها قط من قبل ، ولم ير صورها في جميع الكراسات السياحية اللبنانية التي كان يهوى جمعها ...

بدلاً من بعلبك طار به أولاً إلى مكان أسماه الكرنتينا . أذهله أن يعيش البشر في زرائب تنكية ، وان يبكي الأطفال في الوحل جوعاً .. وفقراً .. ولكن لاحظ ان عيونهم حمراء ، او ان ضياء أحمر يشع منها في كثير من التصميم والغضب ... بعد هذه الزيارة كرر الشاب ترحيبه للسائح الوحيد في لبنان ، وللسياحة الأولى الحقيقية المجيدة ، ثم عاد وحمله على كتفيه وطار به كالصقر وبلمح البصر وجد السائح نفسه في مكان يقطر فقراً وقال لهَ الشاب « نحن الآن في تل الزعتر » ...

* * *

كابوس ٩٥

كان المسلح ما يزال يحوم في الجو كطائر الرعد ، ويحرك جناحيه الشفافين بينما تمسك السائح الوحيد في لبنان بشعره الكثيف كلبدة الأسد ...

في القاع ، كان قادراً على ان يرى بوضوح أطلال مدينة أكلها الزمن ونهشتها

Akhawia.net

عوامل الطبيعة ، فحولت بيوتها السكنية إلى ما يشبه البقايا ...

سأل السائح الوحيد في لبنان ، المسلح الذي يطير به في جولة سياحية غير رسمية ولا تقليدية : أما زلنا في لبنان ؟ هذه الآثار لا تبدو كبعلبك .

رد المسلح : قلت لك هذا تل الزعتر . وهو في لبنان . بل في بيروت . وهو ليس موقعاً أثرياً سياحياً ، بل هو مكان يسكنه بشر يتناسلون ولهم أطفال لا أحجار شطرنج تستطيع حملها عن رقعة اللعب وازاحتها متى شئت ...

وهبط المسلح بضيفه يتجولان في المكان ...

كانت البيوت أكثر قدماً من صور هياكل بعلبك . وثمة غيمة تحاول حجب الشمس عن الناس المتعبين ، إلا أنه لاحظ في عيونهم ذلك البريق الأحمر الغريب المليء بالحيوية الشرسة ، رغم اصفرار وجوههم مرضاً وتعباً ...

كرر السائح الوحيد سؤال دليله الشاب : هل نحن في لبنان ؟ قال : بل في بيروت نفسها ... ان ما تراه من بيوت ، وبشر وآهات وغضب يمتد حول بيروت حزاماً من نار ...

قال السائح الوحيد : أرجوك .. تعبت . خذني إلى شارع الحمراء . أريد ان أذهب إلى مكان أليف خفيف الظل . طار به الشاب قليلاً ثم هبط به في شارع كئيب المظهر حزين الصورة يرقص الفقر على جانبيه ويقفز فوق الشرفات المهترئة والدكاكين الحزينة..

قال السائح الوحيد بلبنان : أهذا شارع الحمراء ؟ ...

رد الشاب : أجل . وهذا أيضاً اسمه شارع الحمراء . وهذا أيضاً يقع في بيروت ، واسم المنطقة برج البراجنة . واغمي على السائح . وحين استيقظ ، طلب من الشاب ان يحمله إلى الأرز في الشمال ، فطار به إلى الجنوب وتعب السائح الوحيد في لبنان فقرر دخول احد البيوت ليشرب ويغسل يديه . قالت له المرأة الحامل التي فتحت الباب : ليست لدينا مياه جارية . انتظر . سأملأ لك قليلاً من الماء . ومضت نحو مستنقع وملأت له كأساً . ذعر وهو يرى الديدان تغلي فيها .

قال لها : انا جائع . هل لديك خبز .

اعطته رغيفاً معجوناً بالشوك ومغطى ببقع الدم ! ...

* * *

Akhawia.net

قال الدليل الطائر : سنقوم الآن بجولة في أقصى الجنوب على حدود هذا الوطن مع اسرائيل .. وحمل السائح من جديد وطار به إلى اقصى الجنوب .

كانت الوديان والجبال الوعرة تشتعل بالخضرة ، والتربة الخريفية البنية تغلي وعداً بالعطاء ... وبين مكان وآخر بناء اسمنتي ضخم ... سأل السائح الوحيد : هل هذه استراحات سياحية ؟ أرجوك دعنا نهبط ونشرب كأساً من العرق . رد الدليل الطائر وهو (يخرطش) سلاحه : بل هذه مخافر اسرائيلية متقدمة داخل الأراضي اللبنانية ... انهم يأكلون الوطن قضمة بعد أخرى ، والوطن تفاحة هشة ! ...

صرخ السائح : ارجوك خذني بعيداً .. بعيداً . إلى أقصى الشمال إلى مناطق أرز الرب .. لقد تعبت ...

وطار به الدليل فوراً إلى أقصى الشمال ، واشرفا من بعيد على جيش يتدرب وسأل السائح : ما هذا الجيش ؟ رد الدليل : جيش التحرير الزغرتاوي .. سأل السائح : ولكن ، لماذا جيش التحرير في أقصى الشمال بينما العدو في اقصى الجنوب . ؟ .. رد الدليل انها من مظاهر المعجزة اللبنانية والأعجوبة اللبنانية . الم تسمع بها ؟ العدو في أقصى الجنوب وجيش التحرير في أقصى الشمال ! ... قال السائح : تعبنا يا أخي ... خذني إلى اي مكان التهم فيه صحناً من الكبة النية ثم اوصلني إلى المطار ... انا على أية حال اميركي الجنسية ... وطار به المسلح إلى مكان ما في بيروت ... كان هنالك رجل يعذب في أحد الأقبية .. سلخوا من فخذه قطعة من اللحم ، وتولت دقها في جرن الكبة سيدة تطلق الزغاريد طوال الوقت وعلى صدرها وسام لا يحمل مثله أحد في البلاد ، وتم اعداد صحن الكبة النية باللحم البشري للسائح ، فأكل هنيئاً وانبسطت اساريره بعد ان ابتلع محتويات (ألفية) من العرق وقال لدليله السياحي الطائر : بالله عليك ، كفانا مزاحاً .. خذني إلى شارع الحمراء ... شارع الحمراء « اياه » حيث واجهات المخازن وسيقان الفتيات ... هل فهمت ؟ ... رد المسلح بصبر : حسناً ... فهمت .

وطار به إلى شارع الحمراء ..

دهش السائح الوحيد ...

فقد شاهد الناس يلملمون دكاكينهم عن الأرصفة ويحملونها بكل محتوياتها كما

Akhawia.net

يلملم السيرك خيامه حين يرحل .. وكما يلملم الممثلون ديكوراتهم حين تنتهي المسرحية ... فوجيء بأن الأشجار والسيارات والدكاكين ، كل ما في الشارع من الكرتون ، أما الفتيات فكن مجرد دمى منفوخة ، وكان يتم تفريغها من الهواء وتكديسها على أرض الشاحنة مع بقية الديكورات ! ... صرخ السائح : ماذا حدث لهذا الشارع المجيد .

رد الدليل : لا شيء ... انتهت مسرحية « الازدهار » التي قدمت على خشبته عدة أعوام ، وقد أفلس اليوم مخرجها ومنتجها بعد فشلها الهائل في اقناع الجماهير العربية العريقة ... لقد كان نجاح المسرحية مجرد فقاعة ... وها هم يلملمون الديكورات ويرحلون بسيرك « الازدهار » إلى حيث لا أحد يدري ، وربما إلى مدينة عربية أخرى لتقديم المسرحية العتيقة ذاتها !.. وتابع الدليل طيرانه بالسائح فوق شوارع بيروت وكانت القمامة تشتعل في الدروب الخاوية وسحب الدخان تغلف المرئيات بلون رمادي مفرط الغم ، وذكره المشهد بصور المدن العتيقة التي يجتاحها الطاعون والأوبئة ... كانت رائحة كريهة حزينة تملأ المكان ... بيروت تتعفن ... الذباب وحده يتناسل ... صرخ السائح بدليله : أرجوك .. خذني إلى المطار ... وفي الدرب إلى المطار سمع بيروت تزعق كأرملة فقدت رشدها ..

وفي المطار ، خطف السائح طائرة ، وطلب من قائدها التوجه إلى أي كوكب آخر غير كوكب الأرض ! ..

* * *

كابوس ٩٧

استيقظت مرهقة وقد حلمت أحلاماً بائسة ومزعجة .. ظللت طويلاً مرمية في الفراش الغريب كخرقة اتأرجح بين النوم والنوم ، والكوابيس واليقظة .. (ولكن ، أليست الكوابيس درجة متقدمة من درجات الوعي ؟ أليست الكوابيس يقظة مرهفة والجنون وعياً مطلقاً ؟) دوى انفجار صاروخ أعقبه صوت سقوط زجاج محطم ... وبدا صوت سقوط الزجاج طويلاً وممطوطاً كأنه صدى الانفجار ... السرير الغريب أحسه باستمرار برقية انذار من مملكة التشرد والغربة .. وصوت الزجاج المحطم يذكرني — دون ان أدري لماذا — بالبياض المزرق في جدران المستشفيات الحديثة ... ساعتي تقول ان الساعة هي الرابعة إلا ١٢ دقيقة فجراً ... نهضت إلى النافذة .. كانت السماء صافية صافية

Akhawia.net

مزروعة بنجوم براقة جداً ، وبدت لي مثل صورة ملونة لأطلس جغرافي حديث من تلك الصور المبالغ في تجميلها وتلوينها ... بدت لي السماء رائعة وكبيرة وأبدية فعلاً ، وأحزنني أن أعرف انها ليست كذلك ... وان نصف عمر الشمس قد انقضى ، وانه قد تبقى لها ٤٠٠٠ مليون سنة قبل ان تنطفىء نارها وتنتهي التفاعلات الذرية في لبها ، واذا لم يكف الانسان عن اللعب بالحرب وتدمير الذات ، واذا لم يتحد أهل كوكب الأرض ، لمواجهة مأساة انطفاء الشمس بالرحيل إلى كوكب آخر ، له شمس في شمس حياتها ، فان الدمار النهائي محتوم .. ومع ذلك فالانسان مشغول عن تجاوز ذاته وكوكبه والجاذبية وجدار الصوت وجدار الضوء وغارق في احقاده ومجازره الصغيرة ... ولو استطاع الانسان كسر جدار الكراهية لاستطاع العلم كسر جدار الضوء ، ولانتفى الموت ، ولصار بوسعنا الركض في أكوان الزمان والمكان جيئة وذهاباً ... ولاستطعت لقاء يوسف في كوكب ما .. في كوكب آخر نقطنه بعد ان نكسر جدار الحياة ! .. « يوسف » ... همست باسمه بكل ما يملك الجسد البشري من طاقة على التكاثف في سحابة كونية لامتناهية ، للامتزاج بسحابة أخرى ... « يوسف » كررت اسمه فيما يشبه الصلاة وشعرت بأن أبواباً لا مرئية تنفتح واسواراً غامضة تنشق وكنت واثقة انه بطريقة ما يسمع صوتي .. وعدت إلى فراش الغربة ، وانزلقت من جديد إلى شطآن النوم الغامضة ...

* * *

كابوس ٩٨

توقف قطار الليل ، وكان رصيفه بركة دم . هبط راكبه الوحيد ، وكان اسم الزمان بيروت ...

تجمعت حوله الطيور الليلية والقطط والرياح والأشجار والفئران ترقبه بفضول . كان جسده من جذع زيتونة موغلة العتق ، وشعره من أعشاب الأعماق البحرية ، وفي عينيه دهاليز لامتناهية الأبعاد والمرايا ... وعلى شفتيه ابتسامة نصف بريئة نصف مذهولة ...

فقد أدهشه الا يأتي لاستقباله أحد .

صرخ بحزن : اين انت يا شعبي ؟ اين انتم ايها الاطفال .. ايها الفقراء .. ايها البسطاء .. اين ذهب الجميع ؟ ..

Akhawia.net

وتقدم منه بوم لطيف المعشر وسأله عن اسمه .. ورد الشيخ : اسمي العيد .

وانفجرت مخلوقات الطبيعة ضاحكة ، فالحياة بحد ذاتها هي عيدهم اليومي المستمر ... انهم لا ينتظرون مرور قطار العيد لانهم ببساطة يقطنونه ! ... وقرر سنجاب حريري الذيل ان البشر مضحكون لانهم ينتظرون زيارات العجوز العيد دون ان يلحظوا ان شروق الشمس اليومي ورقصة المد والجزر واناشيد المطر والفصول كلها أعياد نسوها في غمرة انشغالهم بصنع الدمار والبشاعة .

مشى نحو بيروت .

استوقفه حاجز مسلح وسأله عن اسمه ، قال : اسمي العيد . لم يبد على أحد أنه تذكر هذا الاسم . احدهم فقط بدا وكأنه يحاول استرجاع صورة ملونة داخل رأسه ، لكنه لم يستطع ، فقد كانت أصوات الرصاص طيلة أسابيع قد مزقت شاشة ذاكرته ...

كرر : انا العيد . قالوا : تشرفنا . اين تذكرتك (بطاقتك الشخصية) ؟ .

أشار العيد بيده المعروقة كسنبلة إلى هلال نحيل في السماء وقال : القمر تذكرتي ! ...

لم يرفعوا رؤوسهم إلى الأعلى . كانوا قد اعتادوا على استعمالها للصيد فقط . أحدهم فقط صوب رصاصة إلى القمر ، وأطلق النار بدقة ، فأصابه ، وانفجر الهلال وسقطت جثته كومة من الرماد ... وضحك الرجال واطلقوا سراح العجوز المجنون لأنه أرخص من رصاصة !! ...

* * *

ـ ايتهاالسيدة ، ايتها السيدة ، ماذا فعلت بجدائلك ؟

هكذا سأل العجوز امرأة عرفها منذ زمن طويل واحبها ... كانت جميلة وانيقة وترتدي القفازات باستمرار .

قالت : قصصت جدائلي وخنقت بها أولادي واحداً بعد الآخر ! ...

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، ماذا فعلت بحبيبك ؟

ـ غدر بي ، فشنقته على أسوار قلبي ...

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، ماذا فعلت بأسوار قلبك ؟

ـ علقت عليها جثث أيامي ، وتركتها لنسور الصحو تأكل عيونها واكبادها ...

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، ماذا فعلت بجلدك الأملس الشفاف ؟

Akhawia.net

— زوجته للتراب ، طهرته بالأشواك وعطرته برائحة البارود .

— ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، لماذا لم تنتظريني على رصيف محطة الليل كما في كل عام ؟ ..

— لانني فقدت القدرة على التخدير ...

— ولكنني العيد ...

— ولكنك عابر سبيل . تعبت من عابزي السبيل كعاهرات الموانىء ...

— ايتها السيدة ، ايتها السيدة التي اسمها بيروت .. هل فقدت رشدك ؟ .

— ربما ... وربما لا .. ربما للمرة الأولى استعدت رشدي ..

— ايتها السيدة ، أيتها السيدة ، شفتاك مشققتان كالقديد ، وجهك محروق كرمل الصحارى ، عنقك هزيل كطائر محروق العش ... كيف تستمرين ؟ ..

جرته السيدة من يده ... ثمة تل من سبع طبقات ... طبقة من الملح ثم الجثث ثم الدم ثم الخطيئة ثم الندم ثم التوبة ثم الوعي ... وفي التراب الغامض لهذا المزيج ، ثمة نبتة خضراء تشق دربها في العتمة والريح وشهقات الاحتضار الممزوج بشهقات الولادة ..

— ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، كيف تقضين لياليك الآن ؟ ..

— على الشاطىء كسرت علبي الليلية وتركتها تهترىء كعلب السردين الفارغة الصدئة ... اني اراهن اليوم على مستقبل آخر ..

— ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، اخشى ان تكون هذه هي النهاية ... انك لم تعودي جميلة ...

— لم اكن قط جميلة . لا جمال بلا عدالة . كنت قناعاً جميلاً وها أنا أخلع قناعي ، واخلع مجوهراتي وفرائي وقفازاتي واغسل وجهي ... ولو بالدم ..

— ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، لقد ضيعت دورك .

— لقد رفضت دوري كراقصة أولى في كباريه الشرق الأوسط ! ..

من رمادي قد اخرج ، من نهر الدم قد اتطهر .. انها فرصتي الوحيدة لأكون ، ولأنجو ...

— ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، اين فندقك الوثير الارائك لأنام ؟ ...

— الوطن ليس فندقاً ... في زيارتك المقبلة آمل ان تقيم بيننا دائماً ... وتصير مواطناً

Akhawia.net

في مملكة الفرح ... مملكتي .

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، إلى اين تمضين ؟

ـ إلى حيث انجو ، أو أموت !! ..

* * *

لملم العجوز حقائبه وألعابه الرثة ، وزماميره السخيفة و (كوتياناته) الهزلية وعاد إلى المحطة ...

في الظلمة ، كانت النبتة الخضراء تتوهج بينما الفقراء والبسطاء والأطفال يغرسون جذورها داخل شراييهم لتكبر ...

وجاء البوم اللطيف يحاول أن يؤنس العجوز ريثما يصل القطار ، ويروي له النكات المرحة ، لكن العجوز ـ العيد كان ما يزال يتساءل بحيرة : هذه السيدة التي اسمها بيروت ، تراها تنتحر أم تخلع أقنعتها لتخرج من رمادها جديدة كطائر الفينيـــق ؟

تراه يصير حقاً مواطناً دائماً في جمهوريتها ؟ أم انه في زيارته المقبلة سيطلق الرصاص على رأسه ليموت منتحراً على رصيف محطتها الغامضة ؟ ..

وكل هذا الصخب والعنف . كل هذا الصراخ . أكان احتضاراً أم ولادة ؟..

* * *

كابوس ٩٩

كأن الشمس أقسمت ألا تشرق ما دامت جثث الأبرياء منشورة في الأزقة ، والشوارع قبوراً عامة مفتوحة ...

فتحت عيوني ... كانت تمطر ... والساعة تشير إلى السابعة والثلث ... وفي رأسي حلم حار حار ... حلمت **(احمل اشياء يوسف ... وأدور بها في البيت باكية ... ثم ادخل الدهليز .. فالمطبخ ... اتحرك كالاشباح دون أن يسمع خطاي ، وانا خائفة من نفسي ،خائفة من يدي وجسدي كأنني مغتربة عن ذاتي. خائفة من الداخل وابدو قاسية من الخارج فقد شاهدت وجهي في المرآة الصغيرة عند اول الدهليز وذكرني بوجه الليدي ماكبث بعد ان ارتكبت احدى (فظاعاتها)،.. اتسلق درجاً صغيراً داخل المطبخ .. اصل الى السطح المغطى بالقرميد... اسير نحو كومة من الاشياء المهملة العتيقة .. خزانة شبه اثرية .. افتح**

Akhawia.net

احد ادراجها .. يئن .. يهب غبار عشرات السنين...اعاود اغلاقه وقد تعلقت نظراتي بقطعة اثاث اخرى ... انها سرير خشبي صغير ... سرير طفولتي ... اضع فيه اشياء يوسف ، رسائله وصوره وشموعه وبقاياه ... اغطيها جيداً بشرشف عتيق كي لا تبرد ، ثم اهز السرير بها ، اهزه طويلاً وانا ابكي بحرقة ... آه يا طفلي يا حبيبي ...

بعد دقائق او ساعات تسقط يدي عن السرير . يتابع اهتزازه ثم يخفت تدريجياً تدريجياً كذكرى تنزف حتى تتلاشى ... ويتوقف السرير تماماً ..

اهبط من حيث جئت واغسل يدي !) ..

الحلم يبدو لي عجيباً ، فأنا واثقة من انني لم أصعد إلى سطح بيتنا منذ عشرات الأعوام ، وانا واثقة من انني لا أعرف حتى محتويات غرفة ما تحت القرميد ... ففي طفولتي اخافتني عمة عجوز من هذا المكان ، وكانت تدّعي ان جنياً يأكل الأطفال السيئين يقطنه ، وبما انني طفلة سيئة فان الجني متربص بي في الأعلى كي يأكلني ... وكيف لا يأكلني وانا أرفض تعلم الطبخ والخياطة واشغال البيت كبقية البنات الطيبات وافضل العاب الصبيان ؟ .. وحتى حينما كبرت ، صارت عمتي تتمنى لو ان جنياً حقيقياً يقطن سطحنا يأكلني ويريحها والأسرة مني انا الفتاة الهاربة من (العرسان) المتشردة في أقطار الدنيا ، المعيلة لذاتها ، اللامبالية بآراء (مجلس الاسرة الأعلى) ، ثم الموظفة في دار نشر ثورية (ملحدة) ، والعاشقة لشاب من غير دينها (يا لطيف) ! ...

وصحيح انني اؤمن بأن الجان يتحركون فيما بيننا ، ونرى صورهم باستمرار في صفحات المجتمع بالمجلات وعلى شاشة التلفزيون في المناسبات الخطيرة (مثلهم) ، إلا انني ظللت أحس بخشية طفولية غامضة من غرفة السطح بل انني لا أذكر انني صعدت اليها ولو مرة واحدة منذ طفولتي ... فمن اين جاءني هذا الحلم العجيب . ؟ ..

* * *

كابوس ١٠٠

ما أزال مرمية في فراش الغربة كخرقة ، استرجع كوابيسي وأحلامي الممزقة ..

اطل امين وسألني ما اذا كنت قد نمت جيداً . كان واضحاً من وجهه انه لم ينم أبداً وانه يتمنى ان اسأله السؤال ذاته . لم أفعل . ولكنه كان قد حزم أمره على ان يشكو لي حتى ولو لم أسأله ! قال فجأة : لقد ابتلعت خمس حبات فاليوم ولم انم ... قلت له :

Akhawia.net

الليل حزين وطويل ، والفاليوم محدود المفعول ، وفي ليل الحروب الاهلية تذهب الأدوية المهدئة التي تبتلعها إلى شرايين الفراغ لا إلى شرايينك ! كان ذلك أطول حوار تبادلناه منذ أعوام ! ... حين غادر الغرفة ظللت احدق بالمطر الشرس ووعيت كم انا محظوظة لانني مرمية داخل فراش ولست جريحة في العراء ... شعرت بجوع مؤلم ، وكأن الجو بدل موجتي النفسية ، ونقلني إلى مرتبة أخرى من مراتب الوعي ، وبدأ راداري يلتقط أصوات كائنات دكان بائع الحيوانات الاليفة ...

سمعت أصواتها سيمفونية من الغضب تكاد تطغى على صوت الرعد والمطر ... لم يكن بوسعي ان اميز بين صوت وآخر ... كان صوتها يأتيني مثل زعيق كورس موحد ينشد أغنية الجوع ... تذكرت انني خلفتها في الليلة السابقة جائعة ، وقد حال تصاعد الاشتباكات بينها وبين صاحبها (او من ينوب عنه) من الذين كانوا يسدون رمقها بالقليل لتظل حية وبالتالي ممكنة البيع ! .

أجل ! كان بوسعي وانا ممزقة ومرمية في فراشي كخرقة أن اسمع أصوات مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة ، وأن أعزلها تماماً عن أصوات الرصاص والمتفجرات لاسمع أدق همساتها ... كأن جسدي استحال إلى جهاز في غاية التعقيد والدقة لتنقية الأصوات وفرزها ...

كان بوسعي أن أغمض عيني فأرى بوضوح ما يدور في المخزن ، مضيفة الصورة إلى الصوت ...

كلاب الصيد الخمسة الرشيقة كأحصنة عربية غادرت قفصها .. دارت اول الليل في ردهات المخزن السجن ... ظلت زمناً تنطح الجدران بحثاً عن منفذ .. قفزت نحو النافذة التي اتسلل منها كل ليلة .. الجوع يجعل كل قفزة اكثر علواً من الأخرى ، كل شهقة جوع أكثر ارتفاعاً من الأخرى ... الذعر يدب في أحشاء بقية الحيوانات السجينة ممتزجاً بجوعها ... كهارب الغضب التي تطلقها كلاب الصيد الرشيقة كأحصنة عربية تزداد كثافة واشعاعاً معتماً ، وبقية الكائنات تعبها ، وتضيف اليها ، وتتصاعد أصوات الذعر والجوع والغضب .. الطائر الذي لم يحرك جناحيه — منذ يوم سجنه — بدأ يطير وجسده يصطدم بالطيور نصف النائمة فيوقظها ، وبالقضبان فيهتز القفص .. صمت الببغاء المروض على الثرثرة ، وصار كوزير للاعلام في مملكة ديكتاتورية . نسي اسطوانته

Akhawia.net

التي يقولها بلغات ثلاث : « اشتريني » . وعاد يزعق زعقات الغابة والصدق ، زعقات الحرية والجوع والغضب ... والخوف أيضاً من الكلاب التي بدأت تبحث عما تأكله ... انيابها المشرعة بدأت تمتد على غير هدى عبر حديد الأقفاص ، لكن أكثرها كان دقيقاً كالمنخل فلم يصب أحد بأذى تقريباً ، وكأن بقية الحيوانات استعادت لياقتها الجسدية حين ايقظها الجوع والحس بالخطر ، فقد كانت تتجنب ببراعة مخالب الكلاب وتحول المكان إلى ما يشبه قدر الساحرة : الملأى بالغليان والتناقضات والوحشية المظلمة ... أرى الأسماك تركض في حوضها الخاص (الاكواريوم) الذي لم يعد مضيئاً ، وتبحث عن بقايا الأكل ، ثم تتجمع في فرق ، بالاحرى تتكوم الصغار بعضها على بعض ، وكل سمكة تقايس نفسها بالأخرى : هل هي أكبر ام أصغر ؟ ومن سيأكل الآخر ؟ ...

استطاع كلب ان يجرح أرنباً مريضاً بمخالبه ، لانه لم يقدر على الحركة بسرعة والابتعاد عن ناحية القفص حيث وجهت الضربة ... بدأ دمه يسيل بينما هو يبتعد إلى مكان قصي في القفص ... رائحة الدم تفوح ، وزلزال عجيب يدب في السجن مع انتشار رائحة الدم .. كأن في الدم قوة سحرية تدعو إلى المزيد ... كأن الدم يتناسل ، كأن الدم ينادي الدم .. كأن سحرة العصور الوسطى كانوا يعرفون تلك القوة المجهولة في الدم ، في رائحته ولونه ولذا لم تكن تخلو طقوسهم من الدم ...

أثار الأرنب الجريح موجة من الجنون في المكان ، وهياجاً عاماً غامضاً ، كأن الدم صرخة إنذار في عالم الغابة ، كما صوت صفارة الغارات الجوية في المدينة ، ولكل ردة فعله كما البشر ... بعض الحيوانات سكت وجوماً ، وبعض الطيور ارتسمت في عيونها أحزان عميقة تشبه نظرات اليتامى ، وحتى الطاووس وقف جامداً وقد انتصب ذيله الملون دونما استعراضية ونرجسية ، كما ينتصب تماماً شعر رجل خائف ! ..

أما كلاب الصيد الرشيقة كأحصنة عربية فقد ارتفع صراخها وانطلقت في الدكان غاضبة وبدأت تقفز في (الجزء السياحي) ذي الديكورات الضخمة المعدة لاستقبال الزبائن الغرباء ، القادمين لشراء سجناء صاحب الدكان ، والذين يحجب عن عيونهم كل مشاهد بؤس الحيوانات ، ديكور متقن يقوم بين القسم (السياحي) من الدكان وقسم (الأحياء السكنية) البائسة في جوف المخزن بعيداً عن الشمس والرعاية والعيون ... ومع كل قفزة غاضبة يائسة كان يسقط ديكور ما ، كانت الأظافر تنشب في المقاعد الجلدية

Akhawia.net

الفخمة فتمزقها ثم تنبش قطنها وتنثرها في أرض الدكان كالجثث ، وتكسر اللوحات وتقضي حاجتها فوق مقعد سيد الدكان والزبد الفائر من فمها يتناثر فوق كل شيء ...

* * *

كابوس ١٠١

ما أزال ممزقة ووحيدة ، ومرمية في فراشي كخرقة ...

(حتى ولو كان جسدك موجة بحر . يخترقه الرصاص ولا يؤذيه .. حتى ولو كان قلبك مضخة ألكترونية لا يعطلها الخوف والقلق ، ولا تغير المشاعر الانسانية توقيت ضرباتها ... حتى ولو كانت اعصابك مصنوعة من معادن الصواريخ والمركبات الفضائية ، ونبضك دقات ساعة سويسرية خرجت توأ من المصنع ... حتى ولو كان نومك كدوران الكرة الأرضية لايبدله شيء ، وقدرتك على الفرح كانهمار مياه شلالات نياجارا لا يعوقها شيء ...

حتى اذا كنت كذلك ، فانك بعد ثمانية اشهر من الحرب الاهلية ، ستشعر بالفوضى تجتاح روحك حتى قاعها ... الفوضى تتسلل الى قيمك وافكارك واعماقك ومشاعرك وعواطفك وعلاقاتك .

بعد ثمانية اشهر من الحرب الاهلية ، ستشعر بالحاجة إلى وقف اطلاق نار (داخلي) تكف خلاله عن التفكير بالرصاصات التي اخطأتك ، والصاروخ الذي احرق بيتك ، والقناص الذي اصطاد قبعتك ، وبخبزك المر الرمادي المعجون بفجر الحرائق والصواريخ ، وليلك الطويل المسكون بالبرد والمجهول وصراخ الاطفال والجرحى ، وعويل سيارات الاسعاف العاجزة عن الوصول اليك والتي تحولت الى عربات لنقل الموتى لا تصل الى الجريح إلا بعد ان يكون قد مات ، وسيارات الاطفاء التي تحولت الى سيارات لتقديم التعازي بالحرائق لأن الرصاص يحول بينها وبين الوصول قبل ان تأكل النار كل ما تستطيع أكله ...

بعد ثمانية اشهر من ليل الشوارع المطفأة المصابيح ، وكوابيس الرصاص التي تقطن وسادتك كشريط تسجيل لا يتوقف ، تشعر بأنك بحاجة الى الالتقاء بذاتك ولو مرة ... دون ان تكون راكضاً تحت الرصاص ، او مختبئاً خلف متراس او راكعاً في قلب الزلزال ستتسلل مثلي هارباً الى شاطىء البحر ...

Akhawia.net

جسدك الذي تعودت ان تكوره مذعوراً في اضيق حيز ممكن – كما تفعل بعض حيوانات الطبيعة حين يدهمها الخطر – ستّرمي به على صخرة ..

جسدك ستمده كسحابة على الشاطىء ... ستتركه ينتشر بحجم قدرتك على الحلم التي كدت تنساها ...

ستختار مثلي صخرة عالية وداخلة الى قلب البحر ، بحيث حين تتمدد فوقها وتدير ظهرك لبيروت ، ستتيقن بعد قليل بأنك مبحر في مركب حجري في وسط البحر تماماً ...

بعد ثمانية اشهر من الحرب الاهلية ، ستشعر بالفوضى المروعة وقد استولت على عالمك الداخلي ... وستحس بالحاجة الى اعادة ترتيب العالم في داخلك ، الى اعادة ترتيب القيم والمفاهيم على ضوء المفاجئات التي مرت بك والاكتشافات التي صفعتك او افرحتك لكنها ادهشتك على اية حال ...

تعيد النظر في كل شيء .. في كل المواقع .. في موقع الصديقات والأصدقاء . في موقع عملك . في موقع سكنك . في موقع قلبك . في بوصلة روحك . في اتجاه قاربك الحجري الراكض في البحر الشاسع اللافضولي ... القاع صار سطحاً . السطح صار قاعاً . السقف صار جداراً . والجدار صار درباً . وانت ، من انت بالضبط ؟ ...

آه كم انت وحيد ...

يستطيع الذين يحبونك ان يسرقوا لك الطعام في المجاعة ، لكنهم لا يستطيعون ان يهضموه لك ...

يستطيعون منحك سريراً لكنهم لا يستطيعون النوم عنك ..

يستطيعون منحك شيئاً من دمهم لكنه جرحك انت الذي يجب ان يشفى لا جرحهم ..

يستطيعون حتى الاعتذار عن اساءاتهم اليك ، لكنهم لا يستطيعون ان يتألموا عنك بسبب ما سببوه لك .. آه كم انت وحيد ... وكم تقولها لك الحرب الاهلية بفصاحة لا منقطعة النظير بل و (موصولة النظير) ايضاً ! ..

آه كم انت وحيد ... وكم هي متقنة الصنع مرآة الحرب الاهلية ، بحيث ترى فيها بوضوح مدى شفافية جسر المشاركة ... حبل المشاركة .

انه ليس حبل المشيمة بل هو أرق من شعرة معاوية ! .. إذا لم تحرقك نار الحرب الاهلية ، فانك ستخرج منها وقد انكشفت لعينيك حقائق الوجود ولو في ومضة برق ...

Akhawia.net

المهم ألا تنسى ، ... الحرب الاهلية فرصة نادرة للفنان الذي يعاصرها ويخرج منها حياً لانه يخرج منها حياً مرتين ! ..

تغمض عينيك مثلي قليلاً ... تتابع ابحارك في قاربك الحجري وسط الموج والزرقة اللامتناهية ...

وفجأة تشعر بالسعادة لانك ما تزال حياً ... يا للمعجزة ، لان قلبك ما يزال يدق ! ولانك ما زلت قادراً على الانتشار كغيمة بحجم احلامك ... ولانك ما زلت قادراً على اعادة ترتيب عالمك في بحر الفوضى والولادة والهشيم .

يا للمعجزة ، ما دام الطفل في داخلك ما يزال فضوله يغني ! ...

انفجار ثم لا تخف ... انه ديناميت لصيد السمك ... وكما على الارض كذلك في البحر ... انهم يقتلون السمك ايضاً ... اليس كذلك ؟) ...

ولكنني ما أزال ممزقة ووحيدة ، ومرمية في فراشي كخرقة .. والبحر بعيد بعيد ... والوصول اليه مستحيل ...

* * *

كابوس ١٠٢

جلست خاتون البصارة أمام كرتها الزجاجية ، وصارت تحدق بها طويلاً بينما النسوة خاشعات في حضرتها .. فهي قد أعتادت التحديق في نقطة معينة منذ كانت تزاول عملها كخياطة وتمشي نظراتها مع الابرة الصغيرة الخطى .. إلا أن الزمن تبدل ، والسيدات هجمن على دكاكين الثياب الجاهزة ، وتخلين عنها واحدة بعد الأخرى لمجرد ان أسعارها معتدلة .. وسيدات مجتمع بيروت المخملي يحتقرن الاسعار المعتدلة أسوة برجالهن ، ويفضلن ارتداء ثياب تحمل توقيع أصحابها كتواقيع بيير كاردان وتيدلابيدوس ، وجان باتو ...

وقررت خاتون الخياطة ان تتحول إلى بصارة « وعالمة في ضرب الرمل وفك السحر والربطة تجلب لك الغائب وتتنبأ لك عن الحاضر والمستقبل » كما ذكرت في اعلان اقترح عليها زوجها العاطل عن العمل نشره في إحدى الصحف مع عنوانها .. وكانت المفاجأة مذهلة ..

تدفقت النساء عليها ، والأسئلة عن الغائب والحاضر ، والماضي والمستقبل ، وفك

Akhawia.net

الرصد ، وتجهيز ربطة تضمن ربط الحبيب إلى الأبد ... أدهش خاتون ان الرجال أيضاً بدأوا يقبلون عليها ، وأكثرهم من رجال السياسة .. وهنا كان لا بد من إجراء تعديل في الأسعار ، فلشمهورش تسعيرته وحافشيط واعور الدجان وعطلميس وزغبيباز وغيرهم من الجان الذين (خاوتهم) ... اما الكرة الزجاجية الشفافة فقد جلبتها في بداية عهدها بالصنعة ، ولم تتوقع ان ترى شيئاً فيها . وكان الغرض الوحيد منها هو الهرب بنظراتها من عيني الزبونة ... كي لا تكتشف الزبونة ان خاتون تكذب ! ..

لكن شيئاً عجيباً تحسه في الأيام الأخيرة ، كلما زارها (البيك الكبير) محاطاً بازلامه الذين يحتلون الردهة الخارجية لحمايته ...

حينما يدخل اليها ، تحس بحضور يثقل على صدرها ، وبحاجة مريرة إلى التثاؤب المتوتر طلباً لمزيد من الهواء ... لا تدري لذا كان السبب يرجع إلى شائعة سمعتها عنه تقول بأنه قتل عدة أشخاص في أحد أمكنة العبادة دون ان يرف له جفن ، ام لان له هو بالذات حضوراً شريراً غامضاً ... صار قدومه يسبب لها بعض الآلام في مفاصلها ، ونوعاً من الغيبوبة المتوجعة كغيبوبة مريض تجرى له عملية في رأسه بالتخدير الموضعي ... انها تحس عملياً بالأعراض التي كانت تدعيها ! ..

خاتون تحدق في كرتها الزجاجية الشفافة . البيك يسألها : ماذا ترين ؟ يخنقها صوته . تكاد تعترف له بانها لا ترى شيئاً وترمي اليه بنقوده القذرة وتتخلص منه ، لكن كهارب ذات رائحة كريهة كانت تنبعث منه وتشلها وظلت نظراتها مسمرة على الكرة الزجاجية وفوجئت بأنها لم تعد فارغة وانها ترى في داخلها (البيك) نفسه مقتولاً وقد ارتمت جثته وفيها أكثر من ثقب يتفجر منه الدم ...

سألها ماذا ترين ؟ كانت تستطيع ان ترى الدم يتفجر من الثقوب الكثيرة للجثة بجلاء ، أما الوجه ، وجهه ، فكان يتبدل ، يصير وجوهاً كثيرة لرجال آخرين لا تستطيع تمييزهم ولا تعرف أكثرهم وان كانت قد شاهدت صور بعضهم في الصحف ..

قالت : ارى دماً ... كثيراً من الدم .. مزيداً من الدم ... وظلت تحدق مذهولة . تحول المشهد إلى حقل شاسع من الرماد والجثث ، وبرعم صغير أخضر يشق طريقه وسط زلزال جبار ... يسألها ماذا ترين ؟

تقول : رجلاً له رأسان كل رأس يشتم الآخر ، عقرباً يلدغ ذاته في حقل من

Akhawia.net

الجمر . جنازة لشخص (كبير) والناس يركضون فيها ويعزفون على المزامير .

يسألها وماذا أيضاً ؟ لا تسمع صوته . تتوهج كرتها الزجاجية وتتلاحق المرئيات داخلها . ترى جبالاً مغطاة بالثلج والسنديان والأرز والجثث وشواطىء رملية شاسعة والدم يصب في البحر أنهاراً .. ثم يأتي زلزال وتتفكك الأرض إلى قطعتين كبيرتين بينهما هوة شاسعة عميقة الأغوار ، تنبعث من قاعها نار تبلغ ألسنتها عنان السماء .. ويأتي زلزال آخر وتتفكك الأرض إلى عشرات القطع وتتلاحق الزلازل وتتمزق الأرض تماماً ويتفجر المزيد من ينابيع الدم ويزداد عدد الشقوق والنيران تعلو منها والزبد يتفجر كالينابيع النارية ، والأرض تبتلع الناس والأغنام والمزامير والبيوت والأشجار وتهب عاصفة من نار وصراخ وتصير عيون النساء ثقوباً مليئة بالدم والجمر .

ماذا ترين ؟

يصفعها بوقظها من غيبوبتها وهو يكرر سؤاله . تحاول ان ترد ، لا تستطيع . لقد انعقد لسانها . تعي وعياً غامضاً انها صارت خرساء ، كأن برق اكتشاف الغيب أحرق حبالها الصوتية فصارت رماداً .

* * *

كابوس ١٠٣

ما ازال ممزقة ومرمية في فراشي كخرقة . تأتيني رائحة الحريق مشبعة بذرات البرد الماطر ، والسماء التي صحت قبل الفجر بقليل عادت سقفاً من الفولاذ . استطيع من موضعي في الفراش ان أرى فندق « الهوليداي ان » يتابع احتراقه . احاول النهوض . يدي تؤلمني . تذكرت الكلب وضربة يده ومخالبه التي خلفت آثارها في يدي أربعة شقوق اثنان منها طويلان وقد التهبت بشرتي حولهما قليلاً ... أربعة شقوق كآثار المحراث في التربة ...

أذني أيضاً ما تزال تؤلمني حيث (مسحتها) الرصاصة ، وان كان الجرح قد جف تماماً ... وعما قريب يسقط الدم الجاف ويعود كل شيء كما كان ، ولكن ، هل يمكن لجراح أهل المدينة ، جراحهم الداخلية ان تندمل ويعود كل شيء كما كان ، كما يأمل البعض ؟ دونما أثر لندبة ؟ ... (أية مأساة ان يعود كل شيء كما كان !) .. يدوي انفجار يعقبه كالعادة صوت زجاج يتحطم . أقفز من فراشي دونما جهد ، بل واحس

Akhawia.net

بانتعاش نسبي رغم جوعي وخوفي وعزلتي وجراحي ...

كل ما حولي يجعل الاستمرار معجزة .. لكنني استمر ، دونما جهد . اسقط إلى قاع اليأس ، لكنني ما البث أن أعوم تلقائياً إلى السطح . انها الحياة تتدبر أمرها في النهاية ! ..

في طريقي لتفقد بيتي ، وبصورة خاصة غرفة المكتبة لدي فوجئت بأمين والخادم يتبادلان التهم بشأن ... القردة ...

آه القردة ... كنت قد نسيتها تماماً ، ولكنها على أية حال ليست قردتي انا ... لقد اشتراها أمين منذ عامين لسبب مجهول وقد لفت نظري تصادف شرائها ليلة اعلان فسخ خطوبته الأخيرة من فتاة جامعية — تراها كانت صدفة ؟ وبنى لها قفصاً في ركن قصي بالحديقة ... في البداية أحزنني منظرها .. أحزنني سجنها .. صممت على أن أتسلل ليلاً واطلق سراحها ، إلا ان أخي اقنعني بان اطلاق سراحها يعني قتلها ، فاما أنها لن تجد شيئاً تأكله في غابة الحجارة والأسفلت ، مدينتنا ، او ان شخصاً ما سيقبض عليها ويحاول بيعها او الارتزاق من توظيفها مهرجة عامة ورقاصة جماهيرية في الأسواق !...

كنت كلما لمحتها ، أحس بغصة غامضة ، فمشهد اعتقال الحرية ، أية حرية يوجعني حتى إذا كان (المعتقل) من غير فصيلتنا الحيوانية ... ومع ذلك ، فقد كانت حالتها مشابهة لحال كثير من (الزوجات) في مجتمعنا .. كانت سجينة ، لكنها تقدم لامين دقائق تسلية ومتعة كلما شاء ، مقابل إطعامها وحمايتها والحفاظ عليها من اي اعتداء خارجي ، ومن اي اتصال عاطفي بقرد آخر طبعاً ! ..

كان أمين يصرخ : ولكن كيف نسيت اطعامها ؟ والخادم يصرخ : لا ادري كيف نسيت .. في الحقيقة لم انس ، لكنني لم اجرؤ ... وامين يضرب على رأسه ويردد : هذه مهمتك فتدبر امرك . والخادم يصرخ : ولكنها قردتك انت . وأنا لا اجرؤ على الخروج الآن إلى الحديقة .

كان لا بد من الانتظار حتى يحل الظلام ، وكان صوت زعيق القردة الجائعة قد بدأ يصير مؤثراً ولم يكن أحد قد تجاوز بقدمه عتبة البيت منذ تحول حينا في منطقة الفنادق إلى جبهة حرب ... اتجهت الأنظار إليّ ، فقد كنت الوحيدة التي خرجت إلى الحديقة ولو مرة واحدة نهاراً وكانت النظرات تقول : اخرجي لاطعام القردة .

وقبل أن يطلبوا إليّ ذلك رددت عليهم فوراً : صحيح أنني خرجت ذات مرة

Akhawia.net

لكنني كنت يومها ثملة الا تذكرون ؟

وأيضاً لم يقل أيهما شيئاً . ظلت عيونهما متعلقة بي باصرار . قلت لهما : لن اعلق الجرس . لن أكون انا التي تعلق الجرس . لم يفهموا شيئاً . لم افسر . تابعت صعودي . أصعد السلم ركضاً كالعادة ، احني قامتي عند النوافذ كالعادة . لا تصيبني رصاصة قناص ، كالعادة ، او ربما كان من الحكمة ان اقول : حتى اشعار آخر ! ...

اتابع روتيني الحربي . ابدأ بتفقد غرفة المكتبة . اعيد إلى رفوفها الكتب التي كومتها على الأرض خلال بحثي عن (بقايا) يوسف . (مكتبتي .. وحدها تضم كنوزي ، فبيتنا لا يضم من التحف غير الكتب) .. كان والدي رجل علم وورع ، وقد ورثت عنه الجزء الأول من صفاته ، وورثت عنه مكتبة عربية مليئة بالمخطوطات النادرة ، واضفت اليها الكثير من الكتب المعاصرة الأجنبية ... كانت أيضاً تضم اوراقي وارشيفي وكل ما كتبته طيلة سنوات عشر ... وتضم الكتب (الثورية) التي اشرفت على ترجمتها طوال خمسة أعوام من عملي في دار النشر غير المرضي عنها رسميا ! ... أتأمل رف الكتب الثورية بينما الرصاص يلتهم العالم لا أشعر بالخوف او بالندم . ها هي الحروف التي ساهمت في خلقها تخرج من داخل الكتب ، تصير كل كلمة رجلاً مسلحاً ، تصير كل فاصلة رصاصة ، وها هي تركض على وجه المدينة لتحقق عملياً لا أبجدياً كل المثل التي اؤمن بها ... فلماذا أخاف ؟ ولماذا أقضي نصف عمري وانا أعمل من أجل التبديل والحرية والعدالة الاجتماعية ثم أقضي أسبوعاً أبكي فيه خوفاً من الدم ؟ اي تناقض مروع يضمه القلب البشري ...

اذا لم اتصالح مع الموت ، ومع السلاح ، ومع العنف ومع الدم فلا سلام لي ...

ولكن ، هل مثل هذا الصلح ممكن ؟ ..

* * *

كابوس ١٠٤

.. وهل هي صدفة ان الرصاص الذي زارنا ، استقر أكثره في غرفة المكتبة ؟ ... هل هو رصاص ينطلق ضد استقراري ؟ (طوال أيام تشردي في أقطار العالم كله ، كنت أحلم بمكتبتي كما يحلم الفلاح بموقده . كانت رفوفها هي الانتماء الوحيد الذي عرفت ... كان بيتي دوماً مجرد قاعدة للانطلاق ، مجرد صالة ترانزيت بين رحلة وأخرى ...

Akhawia.net

وحدها المكتبة كنت أشعر بالانتماء اليها !) .. ام أنها مجرد صدفة ان الرصاص يصيب غرفة المكتبة أكثر من غيرها لمجرد انها الأقرب إلى ناحية فندق « الهوليداي إن » اللعين ، حيث مركز النار ام ان الرصاص هو أصلاً نقيض الحرف ؟ ولكن لا . ما كل الرصاص نقيض الحرف . بعض هذا الرصاص الذي ينهمر هو حرف بصورة أخرى .. هو حرف بأبجدية أخرى لم يعد هنالك مفر من اللجوء اليها ... آلات القتال هي أحياناً كآلات المطابع ، وانما يتم استخدامها حين تفشل لغة المطبعة نهائياً . ولكن ، هل يمكن الجزم قط بفشل لغة المطبعة نهائياً ؟ اتحسس رف كتبي الجريح .. أكثر الرصاصات قد استقر في رف ما تدعوه أجهزة السلطة « بالكتب الثورية » ... هل هي صدفة ؟ اتلمس ثقوبها بحنان ... للوهلة الأولى يبدو ان الكتب لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، لا تستطيع اطلاق الرصاص ورد النار بالمثل ... لكن الرصاصة تموت بعد اطلاقها مباشرة . اما الكتاب فيعيش لحظة اطلاقه ، ويتناسل ويتكاثر وكل من يقرأه ويؤمن به يصير هو الكتاب ذاته راكضاً بين الناس على قدميه ...

* * *

كابوس ١٠٥

في الدهليز ينتابني شعور غامض ... كلما اشتد القصف لجأت إلى الدهليز ، ومعلوماتي الحربية المحدودة جعلتني اتخذ منه ملجأ ! ... اجلس واتأمل كتبي ، وحروفها التي صارت مقاتلين في الشوارع وربما أشعر بالرعب الذي أحس به صانع بيجماليون حين نطق تمثالها ! ...

في الدهليز اغمض عيني ، وتنفتح عشرات الدهاليز في اعماقي ... اتذكر حلم البارحة ... وأشياء يوسف ... وأعجب من هذه الدنيا الغامضة التي نرحل اليها حينما نغمض عيوننا مبحرين إلى دنيا النوم ... هل هي حقاً دنيا أخرى ؟ ... وأية أمواج حملتني إلى ما تحت القرميد الذي لم اطأه منذ طفولتي وصورت لي انني أخفيت أشياء هناك ؟ ولماذا هناك في تلك المنطقة المحرمة ؟ ... ولكنني وانا استعيد حلمي العجيب ، احسه كثيفاً له طعم الواقع المعاش ... وكالمنومة أتسلق السلم العتيق وفي أذني موسيقى انفجارية مجنونة تختلط بالانفجارات المروعة الخارجية ... وأصل إلى ما تحت القرميد ... المكان شبه مظلم ولا أعرف أين يوجد زر الكهرباء ، أو إذا كان موجوداً على الاطلاق ،

Akhawia.net

لكنني أعرف دربي التي سلكتها في الحلم ... اسلكها ، يدهشني ان الأشياء هي تماماً كما كانت في الحلم ... الخزانة العتيقة ، ثم السرير الهزاز ... وكان سرير طفولتي يرتجف تحت القصف كما لو ان طفولتي ما تزال ترقد فيه ... كشفت الغطاء العتيق الذي شاهدته في الحلم ، وفوجئت بأن أشياء يوسف ترقد تحتها !! ..

* * *

كابوس ١٠٦

في حقيبة صغيرة ، أودعت صوره ورسائله وذكرياتنا الصغيرة . لم اجرؤ على فتح رسالة منها او حتى قراءة سطر ... كان الأمر أكثر إيلاماً من فتح تابوت رقد فيه أحب إنسان لدينا ... لم اجرؤ حتى على النظر إلى صوره ، ومع ذلك ، كنت مصممة على حملها معي وانا اتساءل : لماذا أحملها معي ما دمت لا أقوى حتى على النظر اليها ؟ كنت كأم فقدت رشدها ، مصممة على حمل جثة طفلها معها — الذي تعرف جيداً انه مات — وهي هاربة من تحت الانقاض ، والجدران التي ما تزال تتهاوى فوقها .. وفوق أشياء يوسف وضعت بعض مخطوطات قصص قصيرة ودفاتر مذكراتي في السنوات السبع الأخيرة ، ومخطوطة « كوابيس بيروت » التي سجلتها يوماً بعد يوم ولحظة بعد لحظة وانا اتأرجح على الخيط الدقيق الفاصل بين الموت والحياة ... ام بين الحياة والحياة ؟ ...

شعرت بغصة وانا أغلق الحقيبة ...

لا بد ان جميع الذين صاروا « لاجئين » فيما بعد ، لملموا بعض أشيائهم في حقيبة صغيرة ذات صبيحة حزينة كهذه ، على اعتبار انهم سيعودون بعد أيام ، ثم خرجوا ولم يعودوا اليها قط ! ...

في صباح مظلم كهذا الصباح ، لا بد ان ملايين البشر لملموا حقيبة صغيرة كحقيبتي هذه ، وغادروا منازلهم وهم واثقون من العودة اليها بعد أيام قليلة ... شعرت بغصة عميقة وانا اسحب (فيش) كهرباء البراد من الجدار .. خشيت ان تعود الكهرباء إلى البيت ولا أعود انا ! ... تذكرت عشرات الحكايات عن الذين فارقوا منازلهم وقد تركوا الطعام في البراد ، وتركوا البراد في (حالة عمل) في محاولة بائسة لاقناع انفسهم بأنهم لن يغيبوا عن البيت أكثر من ساعات ولكنهم لم يعودوا قط إلى بيوتهم ليلتهموا طعامهم ...

شعرت بالغصة ... وقررت ان أقطع المحول الكهربائي الرئيسي عن البيت ... وانا

Akhawia.net

اضغط الزر الأحمر إلى الأسفل ليظهر اللون الأسود في مربع صغير ، شعرت بان هذا المربع الصغير يكبر ويكبر حتى يغطي وجه العالم ...

دهمني شعور غامض : لن ارى النور يضيء ثانية في هذا البيت ...

عادت الانفجارات ، فهرولت راجعة إلى مقري الحربي بالدهليز ، وحيدة ، وخائفة .

* * *

كابوس ١٠٧

كلهم جاءوا إلا أنت ..

أصابعهم على الزناد .. قلوبهم على الزناد .. زنادهم على الزناد ... يعجنون ذكرياتنا بالحديد المصهور ... يعجنون الحاضر بطعم البارود .. يعجنون التاريخ بالوجع كأسطوانة حب مكسورة ...

كلهم جاءوا يحملون شاراتهم وكراساتهم ويكتبونها فوق لحمنا بشفراتهم .. واختامهم الرسمية ...

اين انت ايها الرفيق « حب » ؟ .. اين حنان أناملك تلملم هذا الجنون عن وجه مدينتنا ؟ ...

صارت أيامنا تلالاً من الزجاج المكسر ، علينا ان نزحف فوقها بصدورنا العارية ...

صار احباؤنا طيوراً محنطة تتدلى من رقابنا ذكرى من الرعب ...

صارت أخبارنا فزاعات طيور في حقول الانتظار المتوتر ...

صار وجودنا شرياناً مقطوعاً يتدلى من فوق متراس ما ... صارت وجوهنا صحارى محروقة ، تناديك كما ينادي القحط المطر ...

فاين انت ايها الرفيق « حب » ...

* * *

منذ رحلتَ عن مدينتنا ، احتلها طاعون القسوة السادية والجنون ... الجبال ، السنابل ، السماء ، الطيور ، وصمت الغابات ، وخيوط الشمس ، وأناشيد الرياح ومبخرة الغروب ، كلها صارت مجرد ألفاظ في قاموس منقرض ...

وأنا محنطة داخل رصاصة وذاكرتي تطير بي كأجنحة شفافة من نور ، إلى كوكب

Akhawia.net

منقرض حيث المحبة والصفاء ... (يومها التقطت عن الأرض قطعة حصى صغيرة في احراش عرمون ، ورميت بها إلى قاع الوادي .

... وتفجر صوت : منذ متى لم تغن ولم ترم بحصاة إلى الفضاء كالاطفال ؟) ...

آه منذ متى لم نغن . لم نضحك . منذ متى لم تلمس وجوهنا أناملك ايها الرفيق حب ... تعال. .

فخدودنا أحرقها دخان الأسواق الملتهبة ...

قلوبنا مكومة على الأرصفة كالرماد والتبن ...

أحلامنا مترهلة كالدواليب المثقوبة ! ....

* * *

كلهم مروا بنا إلا أنت أيها الرفيق حب ...

يحملون راياتهم الملونة . حججهم المقنعة . آراءهم البليغة . تصريحاتهم وعظاتهم التاريخية الخطرة .. كراساتهم ونظرياتهم وعبقرياتهم ... ونحن شعب البسطاء . ندفع ثمن ذلك . نصفق ، نصفر ، ثم ننحني .. نخفي رؤوسنا تحت الطاولات كالجرذان حين يدوي الانفجار ، ثم نخرج لنتابع تصفيقنا او تصفيرنا ...

* * *

تعـــال ..

اعرف انه زمن انفجار الرصاصة داخل مسدسها ... أعرف انه زمن السيف الاسطوري ، يقطع كل شيء حتى غمده ... (وقد قطعت كل شيء حتى غمدك) ...

اعرف انه زمن شيفرة البغضاء والشراسة ..

ولكن تعال ...

النسوة في الشوارع يرتدين السواد .. ليس في المدينة امرأة لم تفقد غالياً ، ولو ذاتها (قال لي التاجر وعيناه تلتمعان شراهة : يا ليت بضاعتي كلها من الثياب السوداء ، لبعتها كلها) ...

انه زمن الأفعى تلدغ جسدها ... زمن العقرب يعانق إبرته ..

فتعال ايها الرفيق حب ...

* * *

من خنادقنا القبور نناديك ..

Akhawia.net

من فوهات المدافع التي صارت نوافذنا تناديك ..
تعال إلى مسرح اللامعقول العربي ،
تعال وانظر كيف نتبادل القبل في المقابر
ونمسح شفاهنا بالسم
ونرش الرز المر في مواكب الأخوة الأعداء ،
تعال ايها الرفيق حب
فالقفز من فوق آلاف الجثث مستحيل بدونك ! ..

* * *

انه الشاطى حيث كنا
(أهذا موج ام دمنا ؟) ... انها الريح ...
انها صيحات الطيور المهاجرة ...
انه السقوط في فك الاحتضار المتشنج
انه ظلك تحت الرمـــل ...
انه حبك الساكن بين الموجة والموجة
تعال الينا ...
وعد إلى مسقط رأس الفراق
لتموت معنا
او تنجو معـــاً ! ....

* * *

نداء .. نداء ... نداء ...
إلى الرفيق حـــب ...
نداء بالشيفرة ...
من الجرح إلى الخنجر ...
لقد خلع الحب قفازاته
وصارت أصابعه هي الانتحار ! ...

* * *

نداء بالشيفرة :

Akhawia.net

من الواقفين على مهب الليالي ، إلى الصامدين على قبضة الوجع ...
تعبنا من الركض على حد سكين الزمن ...
وفاحت رائحة الموت من دهاليز جراحنا ...
ايها الرفيق « حب » .
يا حبيبي اللغـــم
ركضت اليك ، وانفجرت بي ! ..
ولـــكن ،
لا تغادرني ، ولا تستوطنني
وابق كمـــا انت
معلقاً بين الفجر الأخير ، والغروب الأول ...
المهم الا تموت ، كي لا نتلاشى ... فانت الروح ، ونحن جثتك !

* * *

ايها الرفيق حب ...
الليلة اغلقنا نوافذنا باحكام ...
لا خوفاً من صوت الرصاص
ولكن خوفاً من ذلك القمر اللئيم الذي أطل فجأة والذي بزغ فوق جراحنا بلا رحمة
وذكرنا بعصرك ، وأصابعك ، وزمنك
زمن الغابات والرياح والفراشات
زمن رمي الحصى إلى قاع الوادي ... والمدى ... والغناء دونما مسرح او مصفقين
غير القطط والسحالى والأرانب ..
الليلة أوصدنا نوافذنا جيداً ،
كي لا تتسلل ذكراك الينا ،
أيها المهاجر عن مدينتنا النازفة
أيها الرفيق حب !

* * *

نداء .. نداء .. نداء ...

Akhawia.net

إلى الرفيق حب ...
أهي أصابعك ،
تلك التي اطلقت الرصاص على رأسك ..
أم أصابعنا ؟ ...

* * *

كابوس ١٠٨

بعد ان رماني الزلزال على الأرض ، سمعت صوت الانفجار ... كان الزجاج المحطم يتساقط فوقي بينما أجد صعوبة غير عادية في التنفس ، كأن أصابع لا منظورة قد افرغت الهواء من صدري ورقبتي .. بقيت في موضعي على البلاط أمام باب الدار وقد تمسكت بالحقيبة الصغيرة التي كنا في سبيلنا معاً إلى مغادرة البيت : الحقيبة وانا ...

في البداية أحسست بان أعضاء جسدي انفصل كل منها عن الآخر ... وحدها الحقيبة ظلت ملتصقة بيـــدي ... ثم عاودني بسرعة شعور حار بالاتحاد ... تحولت إلى وعاء محكم الاغلاق يغلي بداخله دم مضغوط .. .. قفزت نحو مصدر الانفجار ... كان أحد جدران غرفتي ، قد اختفى وبقاياه ما تزال تتساقط ، وعلى طرف الهاوية كان فراشي يتدلى وسحابة من الغبار الداكن تلف كل شيء ... ثم تدخلت الريح ، وبدأت ألحظ ان الجدار الآخر أيضاً حيث باب الشرفة كان قد تهدم نصفه واختفت ملامح الباب تماماً ... ظللت واقفة أمام العتبة ، لا اجرؤ على الدخول والريح تنفخ المطر مكنسة امامها الغبار والأوراق المتناثرة ونشارة الخشب المحطمة ...

لا ادري كم من الوقت انقضى وانا متحجرة أمام الباب ، ممسكة بالحقيبة الصغيرة كما لو كانت طوق نجاة ... وعندها فقط وعيت ان صاروخاً قد اخترق الغرفة .

لكن الغبار سكن .

لم يكن في الغرفة شيء في موضعه.. وحده قميص نومي كان ما يزال على الفراش المرتكز على الهاوية ، وقد تدلى كماه في الفراغ مثل ذراعي ميت ... شعرت بهلع حقيقي ، كأنني داخل الثوب ! ... استلمت برقية مملكة الغربة ووقعت على ايصال الاستلام : لن أنام بعد اليوم أبداً في هذه الغرفة التي لم تعد غرفة ... لقد نصب اليوم الوتد الأول في خيمة تشردي الجديد .

Akhawia.net

كابوس ١٠٩

شاكر بائع أدوات منزلية . ليس غنياً وليس فقيراً . ليس وسيماً وليس قبيحاً . ليس ذكياً وليس غبياً . ليس قديساً وليس مجرماً .

دكان شاكر في أحد أسواق بيروت . يربح باعتدال . يغش قليلاً جداً ليكسب بعض ما يساعده على دفع أقساط اولاده السبعة . كلما ارتفعت الأقساط اضطر إلى أن يغش أكثر قليلاً . كلما ارتفعت الاسعار اضطر إلى ان يرفع مقدار الغش مستغفراً ربه لاعناً الأحوال .

ذات فجر ، كان شاكر في طريقه إلى الدكان حين استوقفه حاجز من رجال الأمن وبلّغه ان السوق قد احترقت . الدكاكين كلها احترقت . سألهم شاكر اين كانوا حين احترقت السوق ولماذا لم يكونوا هناك لمنع حرقها بدلاً من منع أصحابها من الوصول اليها .. ولم يرد عليه احد . قضى يومه والوساوس تأكله .. ترى هل احترق دكانه ، مصدر رزقه الوحيد ؟ ابتاع جميع الصحف وأمعن النظر في صور السوق المحروقة والدكاكين وخيل اليه ان دكانه .. ولكن لا .. لهذه الدكان المحروقة نافذتان ولدكانه نافذة واحدة ... هذه دكانه ... ولكن لا ... لدكانه افريز عتيق مزخرف فوق السطح وليس في الصورة أثر للافريز او حتى بقاياه .

حاول النوم فطرق القلق جفونه بدلاً من النوم ... شتم اولاده وزوجته وتشاجر معهم لسبب لا يعرفه ، فهربوا منه جميعاً إلى النوم واحس بالحقد عليهم لانهم استطاعوا ان يناموا ، ولانه مسؤول عن إطعام هذه الأفواه التي ترسل الآن شخيرها وأنفاسها الرتيبة المسترخية ..

مع الفجر التالي ذهب مصمماً ان يرى دكانه ولو صار دكانه قبره ... كان قد هيأ نفسه لأية مغامرة . لكنه فوجيء بان السوق تعج باصحاب الدكاكين والصحفيين والكاميرات . في البداية لم يجد دكانه ... كان تمييزها صعباً وسط هذا الشارع (الأثري) المشوش المعالم بالركام والهشيم والهباب ، والجدران المسودة نصف المتداعية .. وحين وجدها لم يصدق عينيه ..

وحين غادرها حاملاً ما تبقى من دكانه لم يصدق يديه ! .. ومضى في سيارته العتيقة بما تبقى له من حطام الدنيا ، وكان حطاماً حقاً ! ...

Akhawia.net

كابوس ١١٠

في اليوم الأول خرج شاكر بما تبقى له ليبيع ، بعد أن أمره جوع الأطفال بذلك .. ومضى بها في سيارته إلى شارع الحمراء . نشر بضاعته من طناجر وملاعق وصحون وأوان فوق سطح سيارته الصغيرة ، وما تبقى على الرصيف ... ووقف ينتظر . كان الزحام شديداً ولم يشتر أحد . وبدت له الأرصفة غريبة وعدوانية ... كان فيما مضى يلذ له الخروج إلى أرصفة شارع الحمراء لاستراق النظر إلى سيقان الفتيات النحيلات متذكراً بحسرة ساقي زوجته (ام البنين) الشبيهين بجذعي شجرة عتيقة حجماً وعروقاً ! .. كان أيضاً يمر بهذا الرصيف في الأعياد ، مرافقاً ما تيسر من اولاده إلى السينما ، متأملا زينات العيد والمارة وتعاقب الألوان والأصوات وايقاع الحياة السريعة المليئة بالعنفوان .. كان يلحظ من آن إلى آخر بعض المتسولين الجالسين على الأرصفة يستعطون المارة بعاهات أكثرها مزعوم ..

ثمة متسول أعمى كان يصر باستمرار على الغناء بصوت جنائزي مرتفع وكان يدفع له (حسنة) على أمل ان يسكت او يخفض زعيقه قليلاً ... يا لسخرية الأقدار .. ها هو الآن يحتل مكانه وقد فرش بضاعته في موضع جلوسه ... لكنه صامت ، بل وعاجز عن المناداة على بضاعته كما يفعل جيرانه على الرصيف من الباعة المشردين .

ولم يبع الكثير طوال النهار . وسمع امرأة تقول لأخرى ان هذه البضاعة كلها مسروقة . وانكسر له وعاء ثمين تعثر به طفل صغير وشتمته أم الطفل لانه تسبب في سقوط ابنها على الأرض .

رغم كل شيء ، قضى يومه الطويل مسمراً إلى رصيف الحمراء ... كان يبيع قليلاً ويبتئس كثيراً ويتذكر بحسرة مقعده المريح في دكانه ودفتر الذمم والحسابات . وعند المساء فيما كان عائداً إلى بيته ليلاً استوقفه مسلح في ركن زقاق بيته وطلب منه بلهجة صارمة ان يعطيه ما معه من نقود . اعطاه . لم يكن قد ربح الكثير لكن هذه النقود كانت فعلاً ثمن خبز أطفاله . وبذهول سأل البائع سارقه : من انت ؟ قال المسلح : انا صياد . فرد المسكين : أمرك يا صياد .

* * *

Akhawia.net

كابوس ١١١

في اليوم التالي منع رجال الشرطة شاكر من دخول شارع الحمراء فذهب وزملاءه في البؤس إلى منطقة القنطاري واعاد نصب بسطته . هطل المطر . هبت الريح . هرب الزبائن إلا زبونة متعبة ظلت تجادله طوال ساعة كي تشتري سكين مطبخ وعدة ملاعق ثم اشترت الملاعق وتركت سكين المطبخ وفيما كان عائداً إلى بيته ليلاً استوقفه المسلح نفسه (الصياد) طالباً منه ما معه من نقود .

لم يكن قد ربح الكثير لكن هذه النقود كانت فعلاً ثمن خبز أطفاله ، ومع ذلك فقد اعطاه إياها دونما تردد . كان متعباً وخائفاً . وقال له البائع وهو يناوله إياها : أمرك يا صياد .

في اليوم الثالث حمل شاكر بسطته وعاد إلى القنطاري ، فوجد الرصاص والمطر والريح والقتال يحتلها .. فتابع سيره إلى الروشة ونصب بسطته على أحد الأرصفة ... صارت الأرصفة دكاكينه والريح الباردة زبائنه والمطر جلاده ... بكى كثيراً وباع قليلاً وحين عاد مساء إلى بيته ، استوقفه المسلح نفسه أمام مدخل الزقاق وقبل ان يقول المسلح شيئاً ، ناوله شاكر غلة يومه قائلاً : أمرك يا صياد

في اليوم الرابع لم يذهب شاكر إلى العمل . لم يحمل بسطته ولم يبع شيئاً . نام طوال النهار ، وحين اقترب المساء ، حمل سكين المطبخ التي فشل في بيعها ووقف عند مدخل أحد الأزقة منتظراً عودة باعة البسطات إلى بيوتهم .

كان قد قرر ان يصير (صياداً) ! ...

* * *

كابوس ١١٢

لا أدري كم من الزمن قد انقضى وانا جامدة أمام غرفتي التي مر بها الصاروخ . كانت رياح العاصفة الخريفية الرعدية تحمل معها ثيابي وأوراقي وحطام الخشب إلى الهاوية ، وحتى الفراش عرته الريح من الوسادة واللحاف وفرّغته تماماً مثل صرصور أكله النمل ...

لم يأت أحد . لم يصعد أحد . لا أحد يجرؤ على الاهتمام بمصير الآخر . الحرب الاهلية تعري العلاقات البشرية ، وتحولها إلى هيكل عظمي منخور ... كان العم فؤاد

Akhawia.net

والجيران جميعاً يحرصون على التقاليد الاجتماعية مهما صغرت في هذا الحي ، وكان شراؤنا لكرسي جديدة مثلاً مناسبة لتلقي الزيارات والتهاني طيلة سبعة أيام ، وها هو صاروخ يستقر في بيتي ، ولا أحد يجرؤ على ان يمد برأسه ليرى ما اذا كنت حية ام لا ، انزف ام لا ... انها الحرب الأهلية تفكك الروابط المزيفة كلها ، وتعري القلب لمزيد من الغربة والوحشة ... ربما كان العنف بحد ذاته وسيلة لاختراق مدارات الغربة حين يفتقر الناس إلى العدالة والمحبة : اي الالتصاق الانساني ... فالحرب الأهلية تخلق المزيد من الغربة ، والعنف يكسر الغربة بطريقة وحشية وعابرة ولكنها آنية ، تخلف مزيداً من الغربة وتستدعي مزيداً من العنف وهكذا تتتابع الحلقات المفرغة الجهنمية دونما نهاية .

ولكن المروع ان تعيش في زمن الحرب الأهلية وانت محروم من العنف والحنان في آن واحد (كما يحدث لأكثر الفنانين الذين يمقتون حمل السلاح) وانا محرومة من كليهما ... الخطأ في موقعي ... أقطن حياً لا انتمي إلى طبقته ولا إلى ممارساته وبالتالي لن أرفع سلاحاً للدفاع عنه ، ولن أتواصل حقاً مع اي فرد فيه ... ولكن ، ما ذنبي وقد ورثت ايجار البيت العتيق عن أبي كما ورثت المكتبة ؟ ربما كان ذنبي هو ذنب كل الأبرياء المجرمين ، الذين يتقبلون ما هو مكتوب في ورقة تحقيق شخصياتهم ، ويعيشون إنطلاقاً منها ، فتصير بيوتهم مجرد قاعدة إنطلاق ، وديانتهم مجرد مصادفة ، ويصير موتهم بالتالي في الحرب الأهلية او حياتهم نكتة قدرية سمجة !

وجدتني للمرة الأولى اتساءل : ترى كم من صديقاتي هن حقاً صديقاتي ؟ وكم من اصدقائي هم حقاً أخوان فكر لي ؟ .

كانت الريح ما تزال تعبث بأطراف دفتري الخاص بارقام هواتف اصدقائي ...

تناولته عن الأرض ... إنه متخم بالأسماء ... مليء بالمعارف والصديقات اللواتي التقيتهن على مر عمري .. بدأت اقرأ الأسماء كلها ، إسماً إسماً ، وأذهلني انني لم أعد أذكر إلا النادر منها ... كأن الوجوه كلها أطاح بها صاروخ الحقيقة المؤلمة ... وحده اسم يوسف قفز إلى عيني ، ورقمه وحده لم يكن مدوناً في دفتري ... لم أكن بحاجة إلى أن أذكره .. كنت بحاجة إلى أن أنساه ! ..

جلست على مقعد وألم حاد يصفر في أذني بفضل القذيفة القادمة من « الهوليداي إن » .

Akhawia.net

قررت ان اراقب هاتفي ، من سيسأل اليوم فيما اذا كنت ما زلت أحيا ام لا ؟ قررت ان لا اتصل بأحد ، وان ارقب : من سيتصل بي ؟ .. ضحكت من نفسي ، وقررت انني قد أصبت بنوبة مفاجئة من الحس بالاضطهاد ... لكنني ظللت انتظر ...

لم يرن الهاتف طوال النهار ، حتى ولو مرة واحدة . شعرت بالحاجة لأن أدير قرصه على أرقام يوسف وانا أعرف سلفاً أنني لن أسمع صوته .. (كانت هذه العادة السيئة قد تملكتني مؤخراً) .... رفعت سماعة الهاتف . اكتشفت انه معطل . آه .. نسيت انه كان معطلاً .. منذ البارحة ؟ لم أعد أدري .. لقد اختلطت الأيام والأشياء .

* * *

كابوس ١١٣

العاصفة تزداد عنفاً ... الانفجارات لا تهدأ .. لم أعد أميز بين رعد الآلهة ورعد البشر .. وكلما قصف الرعد الالهي تلاحق الرعد البشري ، كأن المتقاتلين باعصابهم المرهقة يتوهمون الرعد قصفاً مدفعياً ، وكل جانب يتوهم ان القصف قادم من الطرف الآخر .. وينتهي الأمر بالثلاثة إلى القصف في آن واحد : السماء والطرفين المتقاتلين ! ...

ريح العاصفة الرعدية ما يزال يعري الغرفة ... وها هي ثيابي تتطاير من الخزانة المحطمة الأبواب ... تركض في الفراغ وقد حملتها الريح ، ومع كل ثوب يطير ساقطاً إلى الهاوية ، تنتابني رعدة خوف مروع كما لو كنت داخل كل ثوب منها ، كما لو كنت أسقط عشرات المرات إلى القاع .. وأتحطم على الأحجار وأموت دونما نهاية ...

* * *

كابوس ١١٤

فيما أنا أهبط السلم إلى بيت العم فؤاد ، كنت أقدم الوعود لنفسي وللزمن : اذا خرجت حية فسوف أفعل كذا ... وكذا ... سارحل إلى بقية مدن العالم التي لم ازرها ... سأستقيل من عملي واحاول تأسيس عمل لحسابي الخاص . سأعيد النظر في قيمي ومواقفي وموقعي واصدقائي ..

(حينما كنت صغيرة ، كنت اقدم الوعود لنفسي في فترة ما قبل الامتحانات العصيبة . كنت اقرر : اذا اجتزت الامتحانات بنجاح فسأفعل في الصيف كذا .. وكذا .. سأسبح .. سأعتني « برشاقتي » .. سأظل انهض باكراً وامارس رياضة المشي والسباحة

Akhawia.net

واظل اطالع وسأعيد قراءة كتبي المدرسية للسنوات السابقة كي ازداد استيعاباً لها ... وحين كانت الامتحانات تنتهي كنت اقضي الايام اللاحقة لها في النوم والأكل ومطالعة قصص ارسين لوبين البوليسية ! .) ...

العم فؤاد يدور في البيت كالمخبول وهو يغني أغنية شوبانية رومانسية فيما يشبه ايقاع نشيد عسكري. وامين يتابع حملته ضد صراصير البيت وهو يضحك ضحكته الهستيرية الشبيهة بصوت أمعاء تستوطنها الديزنتيريا ! سألوني عن سبب (الضجة) ، فقلت انه صاروخ وبدا الأمر عادياً جداً . لا مزيد من الأسئلة . صمت . صمت . قلت لامين : لقد أبدت الذباب والصراصير من البيت .. قال وهو يعد فخاً عتيقاً من فخوخ صيد الفئران : الآن جاء دور اعلان الحرب على الفئران ... كان على حق ، ولعل صوت الانفجارات أخرج الفئران من أوكارها وصارت تفور في بيوتنا مما جعل منها هدفاً مغرياً لامين (المكبوت حربياً) الباحث عن معركة ... شجعته على حربه غير المقدسة ضد الاحتلال الفئراني ، حرب الملل ، فقد تذكرت جاراً لنا دفع به الملل خلال جولة سابقة إلى العمل قناصاً ! ... كان طبيباً ماهراً وزوجاً غير ماهر ، وقد رحلت عشيقته الأوروبية عندما تناقص زبائنها كما اضطر هو للبقاء سجيناً في بيته عندما تناقص زبائنه ، وفوجئت به زوجته ذات فجر هارباً من فراش الزوجية إلى فراش القنص على السطح ... ويقال انه كان يقتنص كل حي يمر بالشارع ، حتى ولو كان قطاً أو فأراً أو طيراً عبر السماء ! ...

صوت مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة يطاردني .. انتظر موعد زيارتي الليلية لها بشوق حقيقي .. ترى ماذا يدور هناك في سجن الجوع والرعب ؟ .. ولكن ، هذا جنون .. ربما كان من الأفضل ان أزور جيراننا فوق المخزن مباشرة .. تذكرت الجارة . تبدو وكأنها مصنوعة من لب الخبز ، وزوجها يبدو مثل ولد من الخشب (بينوكيو) محشو بآلة تسجيل رتيبة الصوت يتكرر فيها باستمرار شريط تسجيل واحد ...

لا ... سأذهب لزيارة دكان بائع الحيوانات الاليفة ... سأطل من النافذة لارى ماذا صنع الجوع بها ... واذا وجدتها ما تزال هائجة فلن أقفز إلى الداخـــل .. سأكتفي بالتلصص .. الجوع .. آه الجوع .. لقد بدأت أجوع حقاً .. بل انني اتخيل عملياً قضية مطاردة قطة الحديقة والتهامها .. ثم تذكرت قردة امين — سمعت ان لحم القرود أطيب من لحم القطط — كنت اعرف انني لن أقوى على أكل لحم القطط أو القرود في اليوم

Akhawia.net

الأول لجوعي ، أما في اليوم السابع ، وأنا اشرف على الموت ، فسأكون حتماً قادرة على التهام حتى اللحم البشري .. ربما كان من غرائب الصدف ان آخر كتاب طالعته هو كتاب « ألايف » اي (حياً) تأليف بول ريد ، وهو يروي حادثة حقيقية وقعت منذ أعوام . فريق لكرة القدم تسقط به الطائرة في جبال الآندز . يموت البعض . ينجو البعض . الذين لم يموتوا بسقوط الطائرة ، مهددون بالموت جوعاً وسط صحراء الثلوج المحيطة بهم ... بعد أيام من الجوع ، كانت الوسيلة الوحيدة للبقاء هي أكل لحوم رفاقهم الأموات التي حفظتها الثلوج من التعفن ! ... في البداية بدا الأمر مروعاً ، وفي النهاية أكل الجميع .. احدهم أكل حتى من لحم شقيقته ...

انه الجوع ، سيد التاريخ . انه منطق الجوع الذي لا يقدر على استيعابه فيلسوف او أديب جالس خلف مكتبه الدافىء، يأكل الخيار المملح وينظّر النظريات لمصائر الشعوب كما ان المنظّرين للحرب لا يكتبون أعمالهم في الملاجىء والقواعد الحربية وتحت القصف وأمام الدم والجراح الفعلية ! .. انه الجوع ، فيلسوف التاريخ الأول وجنراله الحقيقي ! ..

ما يزال العم فؤاد يدور في البيت شبه المظلم بالعاصفة والكهرباء المتوفاة ، ويغني اغنيته الشوبانية الرومانسية في زعيق له إيقاع نشيد عسكري ... وأمين غارق في حملته العسكرية على الفئران ... أهرب أنا إلى الهاتف لادير قرصه على رقم يوسف ، الذي اعرف انه لن يجيب ! ...

* * *

كابوس ١١٥

اتمدد على فراش الغربة .

لا محاولات هذا المساء لانقاذي ما عدا هاتف من النقيب فتحي ووعد بانقاذي في الغد .. كلمة « الغد » في زمن الحرب تصير مرادفة لكلمة « الدهر » لكنني لم اعترض .. كنت اعرف ان انقاذي وسط جنون النار هذا لا يحتاج إلى مصفحة فحسب ، بل إلى نفق تحت الأرض كأنفاق المدن القديمة المقاتلة .

انه ليل جديد من ليالي الغربة والبؤس .. اغمض عيني وعبثاً تأتي موجة النعاس لتحملني من شطآن الوعي إلى بحار النوم ...

هدوء نسبي على صعيد القصف البشري . التهاب على صعيد قصف السماء الرعدي ،

Akhawia.net

وعبر العاصفة ، يأتيني صوت عجيب غريب ... صوت عزف على (الاكورديون) ! .. شخص ما يعزف مقطوعة « الوردة هي ما يهم » — « سيه لاروز لامبورتونس » ، للوهلة الأولى ، بدت الأغنية وسط ليل الدمار حزينة ومريرة ، وورود العالم كله يغطيها الهباب الأسود ، ومع ذلك شعرت بان هذه الأغنية هي النشيد العسكري لكثير من المقاتلين (لا القتلة) الذين حملوا السلاح من أجل ان تظل الحياة نقية وعذبة كوردة لا تذبل ...

* * *

كابوس ١١٦

متعبة وجائعة وعبثاً أنام .. انوي التسلل إلى دكان بائع الحيوانات الاليفة فأجد نفسي أكثر تعباً من ان أقف في بحر الظلام والبرد والعاصفة .. عاجزة عن التسلل اليها لارى ما يدور .. ولكن ، ها هي تتسلل إلي . وها انا ، اذ أغمض عيني أرى بوضوح ... واسمع ...

المخزن يردد اغنية الجوع بايقاعات مختلفة ... الكلاب الطليقة تتابع غاراتها على (أكواريوم) السمك ، بينما سمكة كبيرة بدأت بالتهام سمكة أصغر منها في أحد زواياه .. الطيور تتشاجر .. القطط ترمق قفص الفئران بحسرة ، وثمة قط كبير يقفز باتجاهها قفزات متتالية غير آبه برأسه الذي كان يصطدم في كل مرة بحديد قفصه ... الببغاء لم يعد يتحدث بالفرنسية وانما يطلق صرخات الغابة والجوع ... كلاب الصيد الرشيقة كاحصنة عربية أصيلة انتهت من تحطيم مدخل المخزن الفخم واتمت تمزيق (الوجه السياحي) له ... الأرانب التي كانت تمارس الجنس بكثرة في بداية أيام السجن والجوع ، عزفت عنه ... وثمة قطة تضع أطفالها في القفص وما تكاد تضع طفلاً حتى يلتهمه بقية قطط القفص وأصوات الحياة تمتزج بنشيج الجوع الوحشي ...

الطفل الأخير الذي وضعته القطة التهمته هي ..

آه الجوع ... تسقط أمامه الأقنعة كلها ، وحتى الحب يتقشر ويسقط كجلد أفعى خلعته عنها .

* * *

كابوس ١١٧

الزقاق بارد جداً . الزقاق معتم جداً . لكن لن يرجع ! .. فقد تسلل الطفل ليلاً

Akhawia.net

هارباً من البيت .. هذا هو الشهر الثامن وهو معتقل ، ممنوع من اللعب في الزقاق مع الرفاق ، وحتى الذهاب إلى المدرسة صار أمنية ، ناهيك عن اللعب بالطين والثلج والوحل والدراجة وغيرها من الأمنيات المستحيلة ... وكلما أصر على الخروج للعب في الزقاق نهرته أمه وقالت : ان الكبار الآن يلعبون هناك وقد تصيبك رصاصة طائشة ...

ويبدو له ان لعب الكبار يطول ... انهم يلعبون ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاء ، دون ان يرغمهم أحد على غسل أيديهم ووجوههم والذهاب إلى الفراش في مواعيد النوم ...

وهو قد سئم الاختباء في دهليز البيت .. وسئم العيش كفأر خائف .. وسئم شجار والده مع امه كلما عاد إلى البيت مدججاً بالسلاح حاملاً بعض الطعام البائس وبعض ما تسميه امه بالمسروقات و (المال الحرام) ..

لقد قرر الهجرة ولن يقف في طريقه شيء . سيسافر إلى استراليا لاحقاً بشقيقه الأكبر . منذ طفولته وهو يستمع عن شقيقه الذكي الذي هاجر بعد ان تسلل على ظهر سفينة واختبأ طوال الطريق ولم يدفع ثمن الرحلة . الاسرة كلها تمتدح (شطارته) . وهو أيضاً سيثبت انه لا يقل شطارة و (فهلوة) .

الزقاق معتم جداً . الزقاق بارد جداً . لكنه لن يرجع .

صرة الأكل التي يحملها تبدو له أثقل مما كانت لحظة غادر البيت . المطر الذي بدأ رذاذاً تحول إلى موجـــة ليلة غزيرة . أنه يرتجف . الظلام مظلم جداً وهو لم يكن يدري ذلك ... ولكن لن يرجع ...

زلت به القدم . سقط في الوحل والطين ، وقبل ان يحاول النهوض شاهد شخصاً آخر غارقاً مثله في الوحل والطين وقد أسند ظهره إلى شجرة ... لم يشعر الطفل بالخوف من الغريب فقد كان عجوزاً يشبه جدّه إلى حد بعيد ، وبدا له متعباً ومريضاً حتى انه لم يمد له يده ليساعده على النهوض .. لم ينهض على أية حال ، وانما سحب جسده على الوحل واسند ظهره إلى الشجرة جالساً لصق الرجل العجوز الذي قال له : آسف يا بني لانني لم أساعدك .. لكنني متعب حتى الموت .. ومفاصلي تؤلمني .. وضغط دمي مرتفع .. وقلبي سيصاب حتماً بجلطة ... هذه المدينة اللعينة تكاد تقتلني .

سأله الطفل : ما اسمك يا سيدي ؟

قال العجوز المتعب : اسمي الموت ...

Akhawia.net

تذكر الطفل انه سمع هذا الاسم من قبل بشكل غامض فقط .. لم يثر فيه الاسم أية مشاعر وانما احزنه منظر العجوز المريض المتعب وسأله : ما هي مهنتك يا سيدي ...

قال العجوز : انا الكادح الاول في هذه المدينة ... منذ ثمانية اشهر وانا لا اتوقف عن العمل لحظة واحدة ليلاً ونهاراً ... — هل انت طبيب يا سيدي ؟ رد العجوز : بطريقة ما نعم . نعم انا الطبيب الاول في النهاية .

قال الطفل : لماذا لا تهاجر معي ؟ انا قد قررت الهجرة من هذه المدينة . لم تعد الحياة تطاق هنا ... دكاكين باعة الالعاب مغلقة والأكل قليل والبرد كثير وحتى النوم لم يعد ممكناً وامي توقظني كل ليلة لتجرني واخوتي وتكومنا على بلاط الدهليز لننام خوفاً من القنابل ...

رد الموت : انت على حق يا صغيري ... الحياة لم تعد تطاق هنا حتى بالنسبة إلي ... سأل الطفل : لماذا لا تهاجر اذن ؟ قال الموت : لأنهم لا يمنحونني لحظة واحدة أحزم فيها توابيتي — أقصد حقائبي — وارحل ! ... آه كم انا متعب ... ظهري يؤلمني ... وذراعي .. وساقي ... انظر الى منجلي كيف ثلموه وغضنوه وعجنوا مقبضه ... انني الكادح الوحيد في هذه المدينة .. انهم لا يرحمون شيخوختي ولا يتركون لي لحظة واحدة للراحة ... قلت لك انهم سيقتلونني .

انشغل الطفل بهموم العجوز الى حد انه لم يلحظ البرد القارس الذي كان قد بدأ يجمد له قدميه ، وسأل العجوز : ولماذا يكرهونك في هذه المدينة ؟ رد الموت ضاحكاً: يكرهونني ؟ انا لم اقل انهم يكرهونني . انهم يحبونني حباً لم اعرف له مثيلاً في اي بلد في العالم ... انهم يسمون شوارعهم وانهارهم وجسورهم باسمي .. ألم تسمع بنهر الموت وجسر الموت وشارع الموت ... بل ان جميع شوارعهم صارت مسماة باسمي .. لقد جعلوا مني ملكاً عليهم وهم يقدمون لي كل يوم زهرة شبابهم .. لا .. لم اقل انهم يكرهونني . انهم يحبونني حباً لم اعرف له مثيلاً في دهري وحبهم سيقتلني ! .. انني فعلاً بحاجة الى طبيب ..

كان البرد القارس يتابع استيلاءه على جسد الطفل ، ولم يلحظ ان نصفه الاسفل قد تجمد تماماً .. كان شديد الاهتمام بمأساة العجوز الموت ، واسند رأسه الى كتفه وسأله : لماذا لا تهرب من مقر عملك ؟ ..

Akhawia.net

قال الموت : لقد سدوا علي منافذ الهرب كلها .. و « العمل » في طرقات بيروت ومخارجها اكثر منه حتى في وسطها ..

قال الطفل والبرد القارس قد جمده حتى صدره : انني متعب مثلك وبحاجة الى النوم. افتح لي كتاباً وارو لي حكاية ..

قال الموت : تعال الي يا طفلي .. انني للأسف لا احمل كتاباً للاطفال لانني افضل التعامل مع العجائز .. لكنني سأطلعك على فواتيري واحكي لك قصتها .. انا آسف لانها القصص الوحيدة المصوّرة التي اعرفها ...

قال الطفل : لا بأس ... اسمعني اية قصة وبعدها تستطيع مراجعة طبيبك ، وان كنت انصحك بالنوم معي حتى الفجر .. حيث اهاجر الى استراليا وترافقني اذا كنت قد استرحت قليلاً ..

قال الموت : بصراحة .. يبدو انني لن اقدر على الهجرة الى اي مكان .. واجباتي هنا كثيرة ، ووكلائي لا يهدأون ... بل انهم انشأوا منظمة باسمي ، منظمة « يعيش الموت » ! .. الملاعين ، سيقتلونني حباً ... وفتح الموت دفتر حساباته وفواتيره .. وبدا الدفتر الكبير للطفل مثل كتاب حكايا اسطورية ... واخذ الموت يقرأ فواتيره شاكياً من كثرة اعماله .

فاتورة : خليل ابو فارس واقف على مدخل مصلحة الكهرباء في محلة مار مخايل يأكل برتقالة . سيطلق مسلح عليه النار ويصيبه في رأسه ويرديه . الرجاء حضورك فوراً للقبض .

فاتورة : في فندق فينيسيا الدخان يحبس مدير الفندق الأجنبي الضخم الجثة وآخر نحيلها . النحيل سيتسلل من النافذة والبدين سيعلق بها ويختنق، الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى ، والقبض .

فاتورة: ايطالي تخصص في سرقة الاحياء المنكوبة . سرق من احد جيرانه آلة تسجيل كانت تخص بيتاً فيه سبع جثث مشوهة .. استمع الى الشريط ليلاً . سمع عليه تسجيلاً حياً لكل ما دار من قتال وفظاعات في البيت . وصرخات السبعة وهم يعذبون ويقتلون ...

الايطالي بعد سماعه الشريط سيقفز من النافذة ويموت ببطء الرجاء التوجه الى المنطقة وربثما تصل ستجد مهمات اخرى بانتظارك .

Akhawia.net

فاتورة : سيارة اسعاف فيها عشرة مسلحين احياء . سيوقفهم حاجز . سيقول السائق : معي عشر جثث انقلها الى المقبرة . لن يصدق عناصر الحاجز . لكنهم سيسمحون له بمتابعة السير . لا يكاد يتابع سيره حتى يطلقوا على السيارة الرصاص . سيموت المسلحون العشرة ، وسيتابع السائق سيره الى المقبرة فعلاً وفي سيارته عشر جثث فعلاً . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى حالاً .

فاتورة : على الجسر المسمى باسمك « جسر الموت » ... ستمر عشرات السيارات وسيطلق القناصون الرصاص على من فيها ... سيارة مرسيدس تقل صحفيتين هما فاطمة وماري سيخطئهما الرصاص فلا تتعرض لهما موقتاً ... المهم ان تتولى امر بقية المارة جميعاً على جسرك هذا الصباح ...

فاتورة : الحاج شبور سيصاب ابنه بالرصاص خطأ اثر معاقرته لرشاش حربي ، وثلاثة من رفاقه .. الحاج شبور سيقسم انه اذا مات ابنه الذي نقل الى المستشفى بحالة خطرة ، فان ثلاث جنازات اخرى سوف تخرج الى الشارع مع جنازة ابنه : جنازات رفاقه الثلاثة ! .. توجه فوراً الى المستشفى للقبض ومر برفاقه الثلاثة ايضاً .

فاتورة : « زين الحي » قتل ، وستخرج جنازته ظهراً ، وسيطلق شبان الحي الرصاص بهذه المناسبة كما هي العادة في هذه المدينة . شبان الحي المجاور سيظنون الرصاص موجهاً اليهم وسيردون عليه بالمثل وستقع مذبحة شهية الرجاء تشريفنا الى منطقة الاشتباكات والقيام بواجباتك ! ..

فاتورة : في شارع عمر بن الخطاب ، فاروق شهاب جالس يشاهد التلفزيون . ستصيبه رصاصة في رأسه تودي بحياته . الرجاء تفضلك بالزيارة .

فاتورة : كتب كريم وصيته قبل مغادرة بيته ، كان على حق في حدسه . الرجاء ملاقاته الى الشارع المواجه لمركز قناص منطقة السوديكو .

كان الموت يتابع تقليب صفحات دفتر فواتيره الشاسع ... وكان البرد يتابع احتلاله لجسد الطفل حتى صار صعباً عليه فتح جفنيه رغم انه لم يسمع من قبل حكاية مثيرة قبل النوم كهذه الحكاية ... سيقول لأمه حين يعود من المهجر انها لم تكن تعرف كيف تروي له حكايا ما قبل النوم .. سيخبرها عن العجوز الذي يتقن قص الحكايا ، والذي اسمه الموت . الموت لاحظ ان جفون الطفل بدأت تثقل .. قلب صفحات دفتره بسرعة لانتقاء

Akhawia.net

حكاية قد تثير انتباهه ... كان الموت بحاجة الى الثرثرة ، كان قد تعب من العمل الشاق ...

قال للطفل محاولاً إثارة اهتمامه عن طريق إثارة المزيد من شفقته : انهم لم يكتفوا بمؤسسة « يعيش الموت » لاجلي ، وبتسمية الشوارع والأنهار والجسور والوديان باسمي ، بل انهم قاموا بسن القوانين تسهيلاً لمهمتي وجعلي شريكاً للملك في الحكم ...

فقد أعرض الناس عن الخروج الى الشوارع خوفاً من القتل ، فماذا فعلت السلطة ؟ لقد اصدرت قراراً لا بمنع التجول ، بل بـ « التجول الاجباري » ومن لا يتجول يعاقب بالموت صعقاً على اسلاك الكهرباء .. ومنذ صدور قانون « التجول الاجباري » تحول عملي الى أشغال شاقة ... انهم يظنون أنهم يسهلون لي مهمتي باصدار قانون التجول الاجباري ... انهم لا يعرفون انهم يقتلونني ... فقد صار علي ان اركض في الشوارع اكثر من ركض ساعي البريد الذي تطارده الكلاب الجائعة .. آه كم انا متعب يا صغيري .

همس الطفل : انا آسف من اجلك يا عمي ...

تأثر الموت وكادت الدموع تتجمع في عينيه وقال : انهم يجعلونني اعمل بمعنى وبدون معنى ... تصور حكاية سائق التاكسي المجنون هذا .. دعني اقرأ لك فاتورته ...

فاتورة : سائق تاكسي قبضاي . يمر بركابه السبعة على الحواجز كلها باختلاف مذاهبها وميولها ... انه يشعر بالقوة وبالعظمة ، وبعد ان ينقذ ركابه السبعة من الاخطار كلها ، ويصلوا الى منطقة شبه آمنة ، يشعر برغبة في ان يقتلهم هو بنفسه ليحس انه اقوى من الحواجز كلها مجتمعة . سيطلق عليهم الرصاص من رشاش اخفاه تحت مقعده . لن يساق الى مستشفى المجانين ولا الى السجن . الرجاء توجهك بسرعة الى هناك ، و (قبض) الركاب وترك السائق حياً ..

البرد تابع زحفه حتى رقبة الطفل . لم يعد بوسعه ان يحرك اي عضو من اعضاء جسده كما انه لم يشعر بالحاجة الى ذلك . كان الثلج قد بدأ يندف والموت يسعل بشدة ويشتم : سأصاب ايضاً بالتهاب رئوي ... حتى اجازة الاعياد حرموني منها هذا العام ! ...

ثم يتابع حكاياته للطفل : اسمع هذه الحكاية .. ستسليك .. كان هناك صبي شقي ، ارتدى جوارب أمه النايلون على وجهه وحمل رشاشه اللعبة ودق باب الجيران ليداعبهم . اعصاب الجميع متعبة ، لذا صرخت الزوجة حين شاهدته وشاركها في الصراخ اطفالها . فرح الصبي . ومد يده ليخلع الجورب عن وجهه حين خرج الزوج وبيده رشاش اطلقه

Akhawia.net

حتى قبل ان يرى من وماذا، فقد كانت اعصابه متعبة . قتل الصبي فوراً واصيب خطأ افراد اسرته وباشروا احتضارهم ، فأطلق الرجل المسكين رصاصة على رأسه ، وكنت غارقاً في النوم حين ايقظتني لجنة الاهالي كي اذهب الى مكان الحادث ... للقبض ! ... ابتسم الطفل قليلاً ، في الحقيقة كان البرد قد بدأ يحتل وجهه وعضلاته تنقبض وتتمدد لا ارادياً .. تابع الموت ... اسمع هذه الفاتورة بالله عليك ...

الفاتورة : قرع المسلحون باب بيت رجل . فتح الرجل الباب . اطلقوا عليه الرصاص فوراً . قتلوه . جاءت زوجته صارخة . سألوها عن اسمه . قالت : سمير . قال احدهم : عفواً.. نحن نبحث عن سمارة لا عن سمير .لقد قتلناه خطأ.اننا نعتذر جداً . آسفون جداً.

ومضوا بحثاً عن رجلهم . تركوا لها جثة رجلها . صبت المرأة على نفسها الكاز ، واشعلت النار . كان علي ان اذهب الى هناك فوراً للقبض . وكانت الرائحة مزعجة جداً ...

الثلج يندف بشدة . الطفل ما يزال ينصت الى حكايا « الموت » الشيقة التي لم يسمع بمثلها من قبل ، وقد اسند رأسه الى صدر « السيد الموت » بطمأنينة عميقة... تابع « الموت » شاكياً : قلت لك ان اهل هذه المدينة سيقتلونني ! ... لقد بحثت عن طبيب طوال الاسابيع الماضية .. ولكنهم اختفوا جميعاً عليهم اللعنة .. حملوا نقودهم وزوجاتهم وعشيقاتهم واطفالهم وهربوا ... انني لم ألتق بطبيب واحد في ردهات المستشفيات وبين الجرحى الكثيرين الذين كان علي ان اذهب اليهم بناء على طلبات « اللجنة الوطنية للموت » ... وعلى ذكر المستشفيات .. اسمع هذه الحكاية .. دعني استخرج لك فاتورتها ، لأتذكر الارقام ...

وبدأت الريح تقلب صفحات الدفتر الشاسع الذي يحمله السيد « الموت » في حضنه .. وقرأ بصوت مبحوح وهو يسعل متعباً كأي عجوز مدمن على التدخين .. (فاتورة ١٠١٥ : في المستشفى) .. نعم تلقيت نداء من مستشفى .. وصلت باسرع من البرق كعادتي .. كان هنالك زحام .. الجرحى في الردهات مكومون ، وفي الدهاليز وعلى المدخل ... كانت هناك مجزرة ، وكان أكثرهم يحتضر فقد اصابت المستشفى نفسه ، والحي المحيط به قذائف مباشرة ... وكنت ادور بينهم وصرخات الألم المروع تتعالى .. كانت اعضاء بعضهم قد بترت تماماً ، وأكثرهم ينادي باسمي كي اخلصه من الوجع .. « يا موت .. تعال يا موت ارحمني وخلصني » وكانت صرخاتهم تقطع قلبي . لكنني بصراحة كنت

Akhawia.net

مشغولاً في البحث عن طبيب يعالجني انا شخصياً .. فكما ذكرت لك ، انا « الكادح » الوحيد في بيروت منذ ثمانية اشهر على الاقل.. لم يذهب أحد سواي الى عمله منذ ثمانية اشهر.. وحدي اعمل راكضاً من شارع الى آخر أجمع الارواح من اكوام المحتضرين في الطرقات اكثر مما يركض عمال القمامة لجمع اكوام النفايات ! وجدت طبيباً واحداً ، فشكوت له من اوجاع مفاصلي وسعالي ورئتي المحتقنة وضغط دمي العالي وقلبي شبه المذبوح وقلت له بصراحة انني اخشى ان أموت .. وحين سألني عن اسمي قلت له ايضاً بصراحة : انا الموت .. وبدلاً من ان يمد الغبي يده لمصافحتي ويقول تشرفنا ، شهق واغمي عليه .. فحررت به « فاتورة » ... وتابعت بحثي عن طبيب آخر وشهقات الجرحى تقطع فؤادي ونداءاتهم لي تفوق نداءاتهم للاطباء الهاربين ... وقررت ان ابعث برسالة احتجاج الى نقابة الاطباء لانهم خرقوا الاتفاق المعقود بيننا والقاضي بتقاسم الناس مناصفة وتركوا مهمة (العمل) كلها على عاتقي .. وفجأة دخل الى الردهة شاب صغير ووسيم وشعر رأسه ولحيته طويل ،ويشبه صور السيد المسيح في الايقونات... صرخ حينما شاهد اخوته الخمسة شبه ممزقين ... كانوا جميعاً ينادونني بلا استثناء .. كانوا في المدرسة حين انفجرت القذيفة ... وقبل ان اقوم بمهمتي فوجئت بالشاب يخرج من يده شيئاً كالرمانة ، وينتزع الفتيل منها ... ودوى انفجار مروع ، آه لو تدري كم كان علي ان اعمل ذلك المساء ... لقد حررت ما يفوق ٥٠ فاتورة في ردهة واحدة فقط من ردهات المستشفى .. هذا باستثناء فاتورة الطبيب الوحيد ! ...

ارتسم الحزن في عيني الطفل ، وكان عاجزاً عن الابتسام أو البكاء .. فقد تجلدت حتى عضلات فمه ، واستولى عليه الصقيع فبلغ حتى شفتيه وحوله الى غريق في بركة متجلدة .. ولكن عينيه ظلتا تلتمعان فضولاً كنجوم صيفية .. تابع الموت شكواه وحكاياه . قال للطفل : اسمع .. سأروي لك حكاية مثيرة عن رسام اسمه ابراهيم ... ابراهيم . انتظر لنستخرج الفاتورة ... اجل ... ابراهيم مرزوق ...

جاع الفنان ابراهيم مرزوق . في اليوم الأول رسم رغيفاً وأكله في اليوم الثاني رسم ايضاً رغيفاً وأكله في اليوم الثالث رسم ايضاً رغيفاً وأكله . فلم يشبع . اضطر للخروج . فخرج الى الفرن ليشتري خبزاً وكانت السماء تمطر حديداً مصهوراً وكان عَملي كثيراً ...

Akhawia.net

وفجأة تركز عملي امام الفرن ... لقد ارسلوا اليهم (رغيفاً) من النار ... وتمزق جسد ابراهيم مرزوق وامتزج بأجساد الاطفال والنساء والرجال القادمين لشراء الخبز والفرح ... آه يا طفلي ، لقد التصقت الاشلاء بجدار الفرن ... احذية الفقراء البلاستيك المصهورة والثياب المقطعة والاشلاء المتناثرة ... كانت من اصدق لوحات القسوة والعنف التي شاهدتها في حياتي ... وكان الفنان مرزوق عمودها الفقري ... رسمها هذه المرة بجسده واجساد قومه ... آه ... كان عملي كثيراً ذلك الفجر .. وتعبت كثيراً ... تابع الموت وهو سعيد بأنه وجد أخيراً من ينصت له دون ان يغمى عليه او يحرر به فاتورة ... « اسمع هذه الفواتير بالله عليك » ... وبدأت الريح تقلب له دفتر حساباته وهو يقرأ ..

فاتورة : نادين رسامة يصفونها بأنها غريبة الاطوار . نادين اشترت تابوتاً وكانت تنام كل ليلة فيه لانها تريد ان تتذكر باستمرار ان زواجها الحقيقي هو زواجها المحتوم بي أنا وتكرر باستمرار : الموت حبيبي الحقيقي . حين اندلعت الحرب الاهلية صار كل ما حولها يذكرها بي ، وذات صباح قررت : هذه الليلة لن انام في التابوت وانما سأنام في سرير . وعند الظهر اصابتها رصاصة قناص وفي الليل كان علي ان امددها من جديد في التابوت الى الأبد هذه المرة ...

فاتورة : سليمة حامل . عمرها ٢٠ سنة . تحتفل بعيد ميلاد طفلتها الاول في بيتها بالخندق الغميق ببيروت . ليس في الطاولة من مظاهر الاحتفال سوى الشمعة الوحيدة . فجأة ينطلق الرصاص . تنطفىء الكهرباء . تسقط سليمة قتيلة . الرجاء مرورك في الموعد المحدد .

فاتورة : اميرة تمنع خطيبها من المجيء لزيارتها خوفاً عليه من الخطف . ينصاع لارادتها ويبقى في البيت . تزوره شظية قنبلة وتقضي عليه . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

فاتورة : أمل تقود سيارتها . تفاجأ بأن الشمس صارت تغرب قبيل الخامسة مساء وان الدنيا يعمها الظلام . تخاف . تلمح شرطي سير . تأمل في ان يرافقها أو يشجعها على الاقل . تطلق بوق سيارتها وتسارع بها في اتجاهه . كهارب الذعر المنتشرة في كل مكان تتجمع في رأسه . يخاف هو ايضاً . لا يعي الا بانه يطلق النار على السيارة الهاجمة باتجاهه . امل تصاب بطلق ناري بين عينيها . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

Akhawia.net

فاتورة : يتدربون في المخيم على استعمال مدافع ار . بي جي . يحصل خطأ فني بسيط . تنفجر قذيفة بين الشبان واعمارهم جميعاً بين ١٧ و ٢٥ – يصاب ٢٥ منهم إصابات خطرة جداً . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

فاتورة : حادث اصطدام بين سيارتين . يقتل اربعة . يجرح ما تبقى . تمر بهم سيارة فيها مسلح متعب الاعصاب . يظن السيارتين المتلاحمتين حاجزاً . يطلق رصاص رشاشه باتجاههما . يقتل الباقون من الجرحى . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

فاتورة : ثلاثة مسلحين اختطفوا الرجل المنشود . يتشاجرون على طريقة قتله يتشاجرون من يقتله . يشتم كل منهم الآخر . يخرطشون اسلحتهم . يطلقون النار بعضهم على بعضهم الآخر . يموت الثلاثة . الرجاء المرور بهم لاجراء المقتضى ، وترك المخطوف يخرج حياً ... حتى اشعار آخر .

فاتورة : منى تستعمل الموتوسيكل في تنقلاتها . في البداية كان الزحام يضايقها وتحرشات الناس بها . الآن يخيفها خواء الشوارع . تركض بالموتوسيكل وقلبها يضرب بجنون . وتتساءل باستمرار : ترى أيهما الافضل، ان أسرع اكثر او ابطىء اكثر بالنسبة لتوقيت انفجار ما ؟ .. اذا اسرعت فقد اصل انا والانفجار في وقت واحد ، واذا ابطأت فقد يقع الانفجار قبل ان ابلغ مكانه وانجو . والعكس ايضاً صحيح . منى متعبة جداً ذات مساء . الشوارع خاوية تماماً . وهي ما تزال حائرة ، هل تسرع ام تبطىء . فجأة ، توقف الموتوسيكل وتجلس على الرصيف . انها لن تسرع ولن تبطىء . لن تتحرك من مكانها . بعد دقائق ، يدوي انفجار في مكان وقوفها تماماً . ربما كانت المتفجرة في (موتوسيكلها) بالذات . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

كان البرد يتابع زحفه في جسد الطفل واستيلاءه على اعصابه عضواً بعد الآخر ... وحتى بريق عينيه الشبيه بنجوم صيفية بدأ يخبو وترك نفسه يغرق بسلام في صدر « السيد الموت»الذي احتضنه بحنان وتابع حكاياه وشكواه له ... قال « السيد الموت»: تصور يا طفلي .. انهم يتفننون هنا في تقديم وجبة الموت ... اسمع بالله عليك هذه الفاتورة : في خراج بلدة عيترون ، اقدم ت .ق على قتل شقيقه بطلق ناري ثم قطع عنقه وبتر

Akhawia.net

اطرافه الاربعة بواسطة منشار حديدي والقى جثته بين الصخور وذلك لخلاف على ملكية ارض ! ...

في كل الدنيا يموت الناس مرة واحدة ... هنا يصرون على تقديم الولاء لي بأن يموتوا أكثر من مرة . مرة بالرصاص ، ثم مرة اخرى ذبحاً .. وهكذا ... الم اقل لك انهم يحبونني كثيراً ... ومن الحب ما قتل .. ملكهم يحبني ايضاً ، ومنذ وقعت معه عقداً على مشاركته في الحكم وانا وحدي الذي يحكم والاعباء كلها ملقاة على عاتقي ...

فاتورة : وليد وندى زوجان نزحا من قريتهما بالجنوب الى حي الشياح ببيروت هرباً من الرصاص الاسرائيلي . ثم نزحا من جديد من حي الشياح الى بيتهما بالجنوب هرباً من الرصاص الانعزالي . يصلان الى بيتهما بالجنوب وتستقبلهما قذيفة اسرائيلية . الرجاء المرور بهما في الوقت المناسب .

تابع الموت شكواه بصوت حزين يقطع نياط القلوب : الم اقل لك يا طفلي انهم اتعبوني واصابوني بالتهاب المفاصل لكثرة الركض من الجنوب الى الشمال ، من حدود اسرائيل الى زغرتا وطرابلس والى البقاع وزحلة في الشرق ... بل ان مهماتي معهم لم تقتصر على الارض ... بل في السماء ايضاً ... اقرأ معي هذه الفاتورة : سقوط طائرة لبنانية ومصرع ٨٨ لبنانياً فيها .

هذا معناه ان اطير الى ارتفاع يفوق ٣٣ الف قدم في هذا الطقس المثلج لأيام بعملي ... آه كم انا متعب يا طفلي .. لا استطيع ان انكر مدى تكريمهم لي وتسهيلهم لعملي ، ولكن مهما كانت ظروف العمل مواتية فانك لاتستطيع ان تعمل ليلاً ونهاراً ، خصوصاً اذا كان عليك ان تعمل في الجو والارض معاً وحتى على طريق المطار ... صحفهم لم تعد تتحدث عن اي شيء الا عن منجزاتي ... انهم يفردون لي الصفحات كلها .. العناوين الرئيسية ، (المانشيتات) والصور .. فيما مضى كانت لي زاوية صغيرة خجول مدسوسة بسرية في اسفل احدى الصفحات الداخلية ويسورونها بالاسود ويسمونها « عمود الوفيات » ... اما اليوم فالصفحات كلها مفردة لنشاطاتي المتعددة اللامتناهية ... وحتى شريكي « الملك » لم يعد يرد ذكره إلا انطلاقاً من منجزاتي انا ، لكنه — بصراحة — اتعبني وخرج على نصوص اتفاقنا والمصيبة انه لا يترك لي لحظة من الوقت لاذهب اليه وافك شراكتي معه ... وهم ايضاً — اهل هذه المدينة — يساهمون في ذلك لانهم يعبدونني دون ان

Akhawia.net

يدروا .. ألا تصدق ؟ الم تلحظ انهم الغوا تماماً الاحتفالات بالولادات والاعراس ، ولم يلغوا طقوس التعازي ؟ اسمع هذه الفاتورة : ننعي اليكم ولدنا ... التعزية في شارع « التقسيم » الواقع بين الشياح وعين الرمانـــة . سيذهب الى التعزية عدد كبير من معارف الفقيد واسرته رغم ان منزل الفقيد يقع في منطقة ساخنة جداً — اي منطقة تبادل اطلاق نار بلغة اهل المدينة — ... سيذهب جمع كبير من الناس رغم الخطر . سينفجر في المنزل صاروخ يحوّل اكثر (المعزين) الى (فقيدين) . الرجاء . مرورك في وقت التعازي لقبض حوالي ٤٠ فاتورة بينهم كاهنهم ايضاً .

ألا ترى يا طفلي كم يسهلون لي مهمتي .

لم يجب الطفل . كان نائماً في حضن « السيد الموت » بلا حراك ، مفتوح العينين وقد انطفأت فيهما النجمتان الصيفيتان الحارتان ..

قال الموت محاولاً ايقاظه لاسماعه مزيداً من شكواه : اسمع هذه الحكاية المثيرة يا طفلي ... صبيحة يوم العيد ، كان هنالك عشرة رجال يرافقون قطيعاً من الاغنام يربو على المئة رأس . تصدى لهم مسلحون . اطلقوا الأغنام وذبحوا الرجال . حتى ذبائح العيد صار علي ان اشارك في إعدادها . عند الصباح وجدت كل زوجة على عتبة بيتها زوجها المذبوح بدلاً من خروف العيد ..

لم يجب الطفل . حتى انفاسه هدأت تماماً ... عيناه فقط ظلتا مفتوحتين ، وادرك « السيد الموت » ان الطفل لم يعد ينصت له ، وانه بطريقة ما رحل الى مكان بعيد بعيد ... اكثر بعدا من استراليا بكثير ... انه هاجر الى كوكب آخر ربما الى الابد ...

وحرر به الموت فاتورة بينما يده ترتجف ونوبة سعال مفاجئة انتابته . كان حزيناً حقاً لفراقه ... ونهض وتابع سيره مصمماً على مغادرة المدينة فوراً رغم ذكريات اجداده فيها خلال الاشهر التسعة الاخيرة ....

العاصفة كانت قد ازدادت ضراوة ، والفجر طلع والريح العاتية تجلده ... ولكن الموت تابع سيره ، مر بسور المقبرة ، ودوى انهيار شديد ، كانت العاصفة تنبش القبور وتطير بها وتفرشها على الرصيف المحاذي لسورها المهدوم ... وفوجيء الموت بحفار القبور راكضاً يناديه : كل الناس يدفنون مرة ، الا في هذه المدينة اللعينة ، علي ان أدفن الميت اكثر من مرة ... تعال يا موت وخلصني من هذا العذاب ...

Akhawia.net

وتقدم منه الموت صارخاً به : بل ادفني انت وخلصني من هذا العذاب ! ... اريد ان اموت . اريد ان اموت .

في الصباح ، وجدت جثة الطفل وقد جلّده البرد الى جانب شجرة في آخر الزقاق الموصل لبيته ولم تكن على الجثة أية آثار للعنف ... كما وجدت جثة حفار القبور العجوز الذي أرهق كثيراً في الاونة الاخيرة ...

وكانت العاصفة قد قذفت ببعض القبور الى الشارع المجاور ، وصار الرصيف قبراً كبيراً مفتوحاً ..

* * *

كابوس ١١٨

استيقظت متعبة ، أكثر تعباً مما لو بقيت صاحية طوال الليل أحفر قبوراً ..

آه كوابيس كوابيس ....

تنبت داخل رأسي وتتسلق جدران روحي كنبات اسطوري شرير .. (ام تراها تقع خارجه ايضاً ؟) ...

آه كوابيس كوابيس عن « السيد الموت » ... كما لو أنه مر ببيتي .. وحلقي جاف كما لو أنه مسّ صدري .. أنهض نحو المطبخ . الفجر لما ينبت بعد تماماً على صخور الليل .. خيط مريض من ضوء رمادي يلف المرئيات كلها ، كأنه لون أصوات الرصاص المتقطع الذي لما يكف بعد ... كأنه لون الزمن الآتي ، ريثما يطلع الفجر . شربت جرعة من الماء المغلي (لتعقيمه بعد انقطاع مياه الشرب تماماً) وكانت تطفو على وجهه سحابة من الكلس المقرفة الطعم ... بذلت جهداً كي لا يردّ جسدي ما شربت بتقزز ... كنت مرهقة ... والجوع قد بدأ يؤثر في جسدي المشرق بالصحة عادة ... قررت العودة إلى فراشي .. لم أكن نشيطة بالقدر الذي يمكنني ان اصعد الى بيتي بالطابق الثالث وأتفقده وأرى آثار أقدام الرصاص والقذائف ، بالضبط ، أتفقد المكتبة ، أهم ما لدي .. ولم اكن متوهجة بما فيه الكفاية لاغامر بالوقوف قرب النافذة لاشم الياسمين ... كانت رائحة الحريق تملأ المكان وحدست ان فندق « الهوليداي إن » يتابع احتراقه .. في طريق عودتي من المطبخ لمحت العم فؤاد جالساً على مقعده بالردهة ... وحوله أكوام الفضيات التي لفها بعناية ، والتحف من (سيفر) و (جاليه) وغيرها من المزهريات التي بدهشني

Akhawia.net